نـجمة حجّار

Nijmeh Hajjar

السنـدبـاد ابـن البـلاد

Al-Sanadbad Son of the Motherland

Kalimat كَلِمَات

نجمة حجّار
Nijmeh Hajjar

السندباد ابن البلاد

Al-Sanadbad Son of the Motherland

Kalimat كَلِمَات

العنوان: **السندباد ابن البلاد**

المؤلّفة: **نجمة حجّار**

Title: Al-Sanadbad Son of the Motherland
Author: **Nijmeh Hajjar**
Language: Arabic
First Edition 2021

Published by Kalimat, Sydney كَلِمَات

www.raghidnahhas.com

Cover Photo, Cover & Book Design: Raghid Nahhas

Photos by Nijmeh Hajjar

Printed in Australia by Five Senses Education

Copyright © Nijmeh Hajjar (nijmehhajjar@gmail.com)
All rights reserved. Apart from any fair dealing for the purposes of private study, research, criticism or review, as permitted under The Copyright Act, no part of this book may be reproduced or stored by any means, electronic or mechanical, without the written permission of the author.

ISBN 978-0-6485339-4-8

NATIONAL LIBRARY OF AUSTRALIA

A catalogue record for this book is available from the National Library of Australia

ألأنّي أحنّ إلى وجه أمّي
كنت أسافر كلّ مرّة
وكلّ مرّة أعود؟

المحتويات

كان يا ما كان	07
حكاية السفرة الأولى	17
حكاية السفرة الثانية	23
حكاية السفرة الثالثة	35
حكاية السفرة الرابعة	49
حكاية السفرة الخامسة	69
حكاية السفرة السادسة	87
حكاية السفرة السابعة	103
ونكمّل المشوار ...	135

كان يا ما كان

كان يا ما كان في قديم الزمان، كان شابّ يعيش في مدينة بغداد لمّا كانت معروفة بدار السلام (واليوم؟ يا حرام يا بغداد! فيها كلّ شيء إلّا السلام. مثل كلّ بلادنا!) نكمّل؟

كان هذا الشابّ يحبّ المغامرة والسفر بالبحر، فقضى فيه كلّ حياته، أو بلا مبالغة، قضى بالبحر كلّ شبابه وأكثر أيّام حياته. التصق البحر بهذا الشابّ، وهو التصق به، فانتسب للبحر. وصارت شهرته "البحريّ" لدرجة أنّ بأيّامه كان يكفي القول "جاء البحريّ ..." و"راح البحريّ ... " لنعرف عمّن نحكي، وموضوع الحكي. وبقدر ما اشتهرت سفرات البحريّ صار اسمه على كلّ لسان في البلاد التي زارها والتي ما زارها. ووصل صيته إلى بلاد المعمورة بزمانه وزماننا.

"عرفت ... عرفت!" أسمع الهمس من حولي.

سمعنا كلّنا (أو أكثرنا) بالسندباد البحريّ. سمعنا حكايته بصغرنا؟ أو قرأناها بكتب الأدب، وبأكثر من لغة؟ ويمكن أن نكون درسنا عن سفراته دون أن نقرأ حكايته، أو حتّى تعرّفنا على جوانب من شخصيّته في القصص والشعر الحديث، خصوصًا قصص الطفولة وشعر الشباب النابض بالحياة. وربّما شفنا من يشبه السندباد

بأفلام سينمائيّة وتلفزيونيّة، أو بأفلام الكرتون (بصغرنا كنّا نسمّيها الصور المتحرّكة! أحلى ... لا؟)

السندباد البحريّ الذي ذاع صيته في أقاصي الأرض، تحوّل اسمه إلى لقب لكلّ نفس بشريّة تعشق المغامرة والسفر. فصرنا نلقّب بـ"السندباد" كلّ إنسان يسافر في بلاد العالم، وبـ"السندبادة" كلّ إنسانة تحلم حتّى بالطلعة من البيت للتفرّج على بلادها وبلاد الأرض الواسعة. وتحوّلت رحلات السندباد إلى مثال للسفر الشائك الطويل المليء بالمغامرة والتشويق. فصرنا نصف كلّ دوران مغامراتيّ حول العالم نسبة إلى السندباد. ولحدّ اليوم، نقول هذه سفرة سندباديّة (أي سفرة طويلة عريضة)، وهذه رحلة سندباديّة (يعني مليئة بالمغامرات).

من أوّل الطريق، حكاية السندباد حكاية عربيّة، لغتها عربيّة وتاريخها عربيّ. ويمكن طبعًا فهمها في سياق تاريخ التجارة العربيّة في البحار الشرقيّة (المحيط الهنديّ وفروعه، وبحر الصين).

تعرّضت حكاية السندباد على مرّ السنين للتغيير والتحوير والتدوير، بلُغَتِنا وباللغات الأخرى التي استفادت من لغتنا، واستفادت لغتنا منها بحركة تبادل لا يمكن تجاهل فائدتها مهما بلغت مخاطرها. سافرت الحكاية عبر السنوات والمسافات. ومثلما سافر السندباد عبر البحار وأقاليم الأرض، عبرت حكايته من الشرق إلى الغرب، ومن الشمال إلى الجنوب، روحات ورجعات. هذا السفر العابر للأزمنة والأمكنة واللغات والثقافات، انعكس على أخبار

السندباد وحكايات رحلاته بالبحر والبرّ والجوّ، وشكّل هويّته وشخصيّته. وصارت هناك محاولات لتبنّيه وأخرى لنبذه.

محاولات التبنّي والتشفّي، والتشويه أحيانًا، انعكست على الاسم فقيل إنّه سمّي السندباد لأنّه من بلاد السِند، أو لأنّه سافر إلى الهند، فسمّي بسيّد بحر السِند. لن أدخل في تعقيدات المعنى، ومن سمّاه السندباد ولماذا؟ ولكن، من أغرب ما قرأت أنّ السندباد كلمة ألمانيّة تعني الأمير، وأطلقت على السندباد البحريّ لأنّه أمير البحر! وهذا ينافي الحقيقة والمنطق. فاسم السندباد ورد في المصادر العربيّة منذ القرن التاسع الميلاديّ، قرون قبل تطوّر الألمانيّة كلغة مستقلّة. طبعًا الحقّ على الترجمة!

لا شكّ أنّ للترجمة أثرها على حكاية السندباد، وغيرها من الحكايات الشعبيّة. وقد أشار زميل لي (وهو شاعر سندباديّ كذلك)،[1] إلى الإيحاء السلبيّ للفظة السندباد بالإنكليزيّة المركّبة من: sin = خطيئة و bad = سيّئة. وإذا دقّقنا بالمعنى العميق لتركيبة Sinbad نكون أمام مسألة جداليّة. فالعنوان الإنكليزيّ للحكاية وحده يضعنا أمام تساؤل حقيقيّ: هل في هذه الحكاية خطيئة

[1] هو الأستاذ الدكتور أحمد هادي الشبول، الرئيس المؤسّس لقسم الدراسات العربيّة والإسلاميّة في جامعة سدني، أستراليا. وله قصائد بعنوان "من أحلام السندباد" نشرها في جريدة **النهار** في سدني، أستراليا، في تسعينيّات القرن الماضي. استفدت من هذه القصائد في كتابتي لحكاية **السندباد ابن البلاد**. وقد أشرت إليه في الحكاية، وفي هذه المقدّمة، باسم "شاعر من بلادي." يمكن أيضًا مراجعة مقالته المنشورة على موقع **بوسطجي**، 8 أغسطس 2019، على الرابط:
السندباد البحريّ بين الشرق والغرب - أحمد هادي الشبول | بوسطجي(postaji.com)

عظيمة أو أفعال فظيعة أو سلسلة من السيّئات يرتكبها خاطئ سيّئ النوايا والسلوك؟

لا أودّ الدخول في القُطَب المخفيّة للاسم. ولكنّي أتساءل، هل السندباد لفظة عربيّة أصلًا؟ هل وَصَلَتنا اللفظة عن طريق لغة أخرى سافرت حكايته عبرها، فعدنا وتبنّيناها من جديد؟ أترك الإجابة لفرصة ثانية. ولنتذكّر الآن أنّ ما يضيع في سلسلة الترجمة (الترجمة عن الأصل، وترجمة الترجمة، ومراجعة الأصل بوحي من الترجمة، إلخ)، قد يغيّب جوانب أصيلة عن الحكاية، أو يضفي عليها ما هو غير موجود في الأصل. وهنا ندخل فيما أُضيف إلى حكاية السندباد، أو غُيِّب عنها، في سفراتها عبر الأزمنة والثقافات واللغات ما قد يحبّب إلينا هذه الحكاية أو ينفّرنا منها.

ألهذا تضاربت الصور التي وصلتنا عن السندباد؟ فهو في معظمها شابّ مغامر (ودائمًا صغير في السنّ. كأنّ السندباد لا يشيب!) هو في قصره تاجر ثريّ، لكنّه كريم وعطوف، يهب ويتصدّق ويكرّم الأصحاب (كلّهم رجال!) أمّا في رحلاته، وبحسب الروايات، فيظهر السندباد بصورة شابّ متهوّر لآخر الحدود ... لحدّ الموت. وهو لا يتردّد حتّى عن القتل للبقاء على الحياة. وهو فوق كلّ هذا ... كيف أقولها؟ متحيّز؟ أوّل ما يلحظه في أجناس البشر هو اختلاف الدين، والهيئة، ولون البشرة، والطبقة الاجتماعيّة (مثل كثر غيره في زمانه، وللأسف، في زماننا!)

سواء أحببناه أم لا، يبقى السندباد ابن بلادي. وحكايته واحدة من حكاياتنا العربيّة الشعبيّة الأصيلة التي وصلت إلى سائر أقطار العالم، القديم والجديد، وصارت من أهمّ الحكايات العالميّة. كانت بدايات السندباد حكايات تتناقلها ألسنة الرواة بهدف الإخبار والترفيه والتثقيف (مثل التلفزيون في زماننا). ولتحقيق هذه الغايات (مخفيّة كانت أو غير مخفيّة) كان من الطبيعيّ أن تكون وسيلة التعبير لغة عربيّة يفهمها الجمهور.

حكاية السندباد كانت تتوجّه بالدرجة الأولى إلى الطبقات الشعبيّة، الجمهور الأوسع من الناس الذي لا يقرأ ولا يكتب. فرويت بلغة الحكي التي تفهمها وتتفاعل معها عامّة الشعب (وهي على أيّ حال لغة الحكي عند النخبة، وإن كانت هذه تفضّل لغة أرفع للكتابة). ألهذا السبب ما اهتمّت النخبة العربيّة بالحكاية بزمن السندباد، ولا بالأدب الشعبيّ بمجمله؟ على كلّ حال، انسحب هذا الإهمال إلى يومنا. فانتشر تصوّر في العالم العربيّ المعاصر أنّ السندباد مغامر أميركيّ أو أوروبيّ، خصوصًا في أوساط الشبيبة والناشئة التي لا تعرف حكاية السندباد بالعربيّة، رغم أنّها اللغة الأمّ لهذه الأجيال ولغة الحكاية الأصليّة.

لا نعرف متى بدأ تدوين حكاية السندباد. قد يكون في زمن الرواية الشفهيّة الأولى، ولا ننسى أنّ طبقة الرواة، الواسطة بين العامّة والنخبة، كانت تقرأ وتكتب. عدا عن تعدّد الروايات الشفهيّة والمكتوبة عبر الأزمنة وعبر البلاد الناطقة بالعربيّة وغيرها، يجب

اعتبار الانتماء الجنسيّ والطبقيّ والثقافيّ لأهل الرواية والتدوين. ويجب أيضًا ألّا ننسى عوامل الترجمة والاستشراق والاستغراب والعودة إلى الأصول واسترجاع الأصيل وتبنّيه.

حكاية السندباد كما وصلتنا في **ألف ليلة وليلة** قد لا تكون الرواية الأصليّة. وهناك نظريّة تقول إنّها ليست من حكايات الليالي أصلًا. ومهما اختلفت الآراء، فإنّ النخبة العربيّة في البداية لم تهتمّ بحكاية السندباد، ولا بحكايات **ألف ليلة وليلة**، بحجّة أنّها دون مستوى الأدب الرفيع. وبعد ترجمتها إلى اللغات الغربيّة، واهتمام الاستشراق بها كمادّة أولى لاختراق الثقافة العربيّة، عادت النخبة وتبنّتها واعتبرتها (وإن بتردّد) من الأدب العربيّ الخالد.

في مسار التنكّر والاسترجاع والتجديد، تدخّلت في الحكاية عوامل كثيرة لدرجة ما عدنا نعرف الأصيل فيها من الدخيل. هناك التهذيب اللغويّ والأخلاقيّ والدينيّ، والنقل الحرفيّ عن الترجمات والمقتطفات المترجمة (خصوصًا قصص الطفولة والمراهَقة). حتّى أفلام الكرتون التي تُعرض على شاشاتنا هي أفلام "مُفَبرَكة" في الغرب و"مُدَبلَجة" بلغة عربيّة متصنّعة أبعد ما تكون عن لغة السندباد الأصليّة. وطبعًا لا ننسى نظريّات الاستشراق والتفسير والتأويل والنقد القديم والجديد وآخرها نظريّات الأدب القوميّ والعالميّ.

أهذا ما رغّبني بكتابة **السندباد ابن البلاد**؟

كانت البداية عندما أعدت كتابة "السفرة الأولى" لتدريس العربيّة لطلبة غير عرب. وتأكّدت رغبتي أثناء تدريسي عالميّة الأدب

العربيّ لطلبة الماجستير في الأدب المقارن. ولكن أكثر ما جذبني هو كيف وصلت إلينا حكاية السندباد.

من زمان، لمّا كنت صغيرة، سمعت بصبيّة حلوة وذكيّة ومتعلّمة. يعني تعلّمت لوحدها؟ كيف؟ أمّها علّمتها شويّ بأوّل الطريق، وهي كمّلت المشوار. بالقراءة والكتابة والملاحظة، علّمت حالها بحالها. وتجربة الحياة، حياتها وحياة الناس من حولها علّمتها أكثر، وثقّفتها. وفوق ذكائها وثقافتها، كانت هذه الصبيّة قويّة الشخصيّة جريئة وصاحبة نخوة. لتنجّي بنات جنسها من ظلم ملك البلاد، عرضت عليه الزواج، رغم أنّها كانت تعرف أنّه يتزوّج المرأة الليلة ويقتلها صباح الغد. عَرَفنا من هي؟ هي شهرزاد التي تزوّجت الملك شهريار، وصارت كلّ ليلة تحكي له حكاية وتتوقّف في الصباح بعد تشويقه لسماع كامل الحكاية في الليلة التالية ... إذا بقيت على قيد الحياة! هكذا، ولمدّة ألف ليلة وليلة، بقيت شهرزاد تحكي لزوجها حكايات، ومنها حكاية السندباد.

حكايتي تروي جملة جديدة من الأخبار والمشاعر ... والأشعار. تَرَكتُ شهرزاد تقدّم لنا رحلات السندباد في سبع سهرات. وتركت السندباد يحكي لنا بلسانه عن مغامراته وأيّام العزّ والاستقرار. فمن أحقّ منه ليخبرنا عن فرحه وحبّه وخوفه وندمه؟ وهل أقدر من كلمات السندباد على التعبير عن جوى قلبه، وعن كلّ ما يمرّ بخاطره؟ ولو أنّه بلحظات معيّنة كان يستعير من كلمات "شاعر من بلادي،" وزماني.

حكايتي تنطلق من حكاية السندباد التي روتها شهرزاد. لكنّ الحكاية الجديدة محاولة لردّ الاعتبار لهذا الشابّ العربيّ الأصيل والكريم الذي يؤمن بأنّ الحياة فيها أكثر من أكل وشرب ونوم ولهو، وأنّ الثروة يمكن أن نحوّشها دون الإساءة لغيرنا، بلّ بإعطاء كلّ إنسان حقّه وكلّ إنسانة حقّها. صحيح أنّه مغامر، لكنّه شجاع لا يفقد الرجاء في الأوقات الصعبة، ولا يتخلّى عن إنسانيّته مهما اختلفت طبقات الناس وأجناس البشر.

سندبادي يقدّر رأي المرأة ولا يخجل بصوتها. ولأنّه ابن بلادي بحقّ وحقيقة، حكيت حكايته بلغة أمّه وأمّي، باللسان النخبويّ والعامّيّ لأهل بلادي. حكيتها بلغة عربيّة أصيلة وبسيطة، سواء سمعناها أو قرأناها لا يتغيّر جوهرها ولا تتبدّل روحها. لأنّ روح اللغة في حياة الناس كلّ الناس. ولأنّ هذه الحكاية جاءت من قلب الشعب العربيّ وبلغته، فللشعب العربيّ وبلغته أرجع أحكيها.

كان يا ما كان في قديم الزمان، كان في صبيّة ذكيّة اسمها شهرزاد. تزوّجت الملك شهريار وهي مصمّمة أن تثبت له أنّ للمرأة الحقّ في أن تبدي رأيها، وأنّها تستحقّ الحياة. ولتقنع شهرزاد زوجها الملك بأنّ الخير مثل الشرّ موجود في كلّ أنواع البشر، وأنّ المرأة مثل الرجل يمكن أن تخطئ ويمكن أن تكون على حقّ، لم تجادله. بل سحرته. لا! لا بجمالها سحرته ... إنّما بفنّ الحكي. صارت تحكي له حكايات عن أبناء وبنات، وأمراء وأميرات، وفقراء وفقيرات. وبليلة من ألف ليلة وليلة (ما عدت أذكر رقمها)، بدأت شهرزاد بالحكي.

قالت شهرزاد:

بَلَغَني أيّها الملك السعيد أنّه كان في زمن الخليفة هارون الرشيد بمدينة بغداد رجل اسمه السندباد الحمّال. وكان السندباد الحمّال فقيرًا، يحمل أغراض الناس على رأسه وعلى ظهره بالأجرة. في يوم حارّ، حمل السندباد الحمّال حملة ثقيلة فتعب وعرق. مَرَّ أمام بيت تاجر قدّامه سبيل ماء وهواء لطيف. فوضع السندباد الحمّال حملته على مصطبة جنب الباب وجلس يستريح ويشمّ الهواء.

انبسط السندباد الحمّال بجلسته. فالنسيم رائق والرائحة زكيّة. وسمع أنغام أوتار، والأغاني والأشعار، وأصوات طيور من كلّ الأجناس. فطرب طربًا شديدًا (يعني بالعربيّ الدارج، اِنطَرَب وفَرِح). نظر إلى داخل البيت فرأى الخدم والحشم مثل بيوت الملوك، وشَمَّ رائحة الأطعمة الزكيّة والشراب الطيّب. عند ذلك، رفع نظره إلى السماء وقال: "سُبحانك يا ربّ! تُغني مَن تشاء وتُفقر مَن تشاء. صاحب هذا المكان غنيّ مستريح دون تعب وشقاء، وأنا فقير وفي غاية التعب والذلّ."

وبينما هو يكلّم ربّه، خرج خادم من القصر وطلب إليه أن يدخل ليكلّم سيّده. داخل القصر، رأى السندباد الحمّال رجالًا من الأشراف والتقى بصاحب القصر، السندباد البحريّ الذي أخبره عن مغامراته ورحلاته البحريّة السبع التي حَوَّلَته من شابّ فقير إلى تاجر غنيّ، ولكن بعد مشقّات وأهوال كثيرة.

وأبحرنا ...

حكاية السفرة الأولى

قال السندباد البحريّ:

كان أبي تاجرًا من أكبر التجّار في مدينة بغداد. مات لمّا كنت صغيراً وترك لي مالًا كثيرًا. لمّا كبرت عِشتُ عيشة مليحة، وصرفت كلّ مالي. وفي يوم أَفَقتُ ووجدت أنّ مالي ذهب وما بَقِيَ لي شيء. خطر ببالي السفر. فقمت وجمعت أغراضي وملابسي، وبِعتُ عقاري وبيتي فجمعت ثلاثة آلاف درهم. ثمّ اشتريت بضاعة وبعض الأغراض للسفر، ونزلت بالزورق في نهر دجلة إلى مدينة البصرة. ركبت مع عدد من التجّار في مركب كبير وسرنا في البحر.

بعد أن أبحرنا من ميناء البصرة، مَرَرنا بجزر كثيرة حيث بعنا واشترينا البضائع. ووصلنا إلى جزيرة جميلة جدًّا. يا الله! كأنّها جنّة! أَرسى رئيس المركب على الجزيرة. ونزل الركّاب يطبخون ويغسلون ويتفرّجون. أمّا أنا فابتعدت عن المركب (أكثر من غيري) لأتفرّج على أرجاء الجزيرة. وبينما الركّاب يأكلون ويشربون ويلعبون، صاح الريّس: "يا ركّاب السلامة! اطلعوا إلى المركب! أسرعوا! اتركوا كلّ شيء واهربوا! فهذه الجزيرة سمكة كبيرة، أكبر من الحوت، رسبت في البحر ونَبَتَت عليها الأشجار من زمان. فلمّا أوقدتم عليها النار أحسّت

بالسخونة فتحرّكت. وهي الآن تنزل بكم في البحر فتغرقون. انجوا بأنفسكم! أسرعوا!"

لمّا سمع الركّاب كلام الريّس تركوا كلّ شيء وهربوا. بعضهم لَحِقَ المركب وبعضهم ما لحقه. وتَحَرَّكَت الجزيرة-السمكة ونزلت إلى قعر البحر. وغرقت أنا مع الذين لم يلحقوا المركب. لكنّ الله أنقذني. رزقني بقطعة خشب كبيرة ركبت عليها، ورحت أرفس برجليّ مثل المجاذيف، وراحت الأمواج تتلاعب بي يمينًا وشمالًا. أقلع المركب وأنا أنظر إليه حتّى اختفى. فحزنت وفقدت الأمل!

بَقيتُ على هذه الحال يومًا وليلة. وساعدتني الريح والأمواج فَرَسَوتُ تحت جزيرة عالية فيها أشجار مُطِلّة على البحر. تمسّكت بفرع شجرة وتعلّقت به وطلعت إلى الجزيرة.

بعد أن صعدت إلى اليابسة وجدت في رجليّ جروحًا من أثر أكل السمك فيهما. لكنّي ما أَحسست بالألم من شدّة التعب. ارتميت على أرض الجزيرة وغِبتُ عن الوعي. وفي اليوم الثاني، طلعت الشمس ووجدت رجليّ قد وَرِمَتا، فصرت مرّة أزحف ومرّة أَحبو على رُكَبي (يعني أُدَبدِب مثل الطفل!) أكلت من فواكه الجزيرة وشربت من عيونها. فانتَعَشتُ ورُدَّت لي روحي. ورحت أمشي وأتفرّج وأفكّر.

بقيت على هذه الحال عدّة أيّام ولياٍل. وفي يوم كنت أتمشّى، فرأيت شبحًا ظَنَنتُ أنّه دابّة من دواب البحر. مشيت نحوه فإذا هو فرس عظيمة المنظر، مربوطة على شاطئ البحر. اقتربت منها، فصرخت صرخة عظيمة. خِفتُ منها. تراجَعتُ. وإذا برجل خرج من

تحت الأرض وصاح عليّ وتبعني. سألني: "مَن أنت؟ ومِن أين جئت؟ وماذا جاء بك إلى هذا المكان؟" فقلت له: "يا سيّدي، أنا رجل غريب، وكنت في مركب فغرقت أنا وبعض من كان فيه، فرزقني الله بقطعة خشب فركبتها وعامت بي إلى أن رمتني الأمواج في هذه الجزيرة." فلمّا سمع كلامي أَمسكني من يدي وقال لي: "اِمشِ معي." فنزل بي في سرداب تحت الأرض. ودخلنا إلى قاعة كبيرة حيث أجلسني وقدّم لي الطعام. كنت جائعًا فأكلت حتّى شبعت، واكتفيت وارتحت. ثمّ سألني عن حالي وما جرى لي، فأخبرته بقصّتي من البداية إلى النهاية. تعجّب من قصّتي.

ولمّا انتهيت من حكايتي قلت له: "بالله عليك يا سيّدي لا تؤاخذني، ما سبب جلوسك في هذه القاعة تحت الأرض؟ ولماذا ربطتم هذه الفرس على جانب البحر؟" فقال لي: "أنا وزملائي سُيّاس الملك مهرجان. كلّ شهر عند طلوع القمر نجيء إلى الجزيرة ونختبئ. نربط خيولنا، فيجيء حصان البحر على رائحة الخيول. يحاول أن يأخذ الفرس معه، لكنّه لا يقدر. يصرخ الحصان فنسمعه، فنطلع من المخبأ، ويهرب الحصان وينزل البحر. وهكذا تحمل فرسنا منه وتَلِدُ مُهرًا أو مهرة تساوي خزنة مال."

بعد ذلك أخذني سايس الخيول إلى ملك الجزيرة، الملك مهرجان، الذي رحّب بي بعد أن أخبرته قصّتي، وأكرمني وجعلني عنده عاملًا على ميناء البحر وكاتبًا على كلّ المراكب. بقيت في خدمة

الملك مدّة طويلة كنت خلالها أسأل التجّار والمسافرين عن البصرة وبغداد لعلّ أحدًا يخبرني فأعود إلى بلادي. وكدت أفقد الأمل.

رأيت في ممكلة المهرجان جزيرة يُقال لها كابُل يُسمَعُ فيها ضرب الدفوف والطبول طول الليل، ويُعرَفُ أصحابها بأصحاب الجِدّ والرأي. ورأيت في ذلك البحر سمكة طولها أكثر من مئتي ذراع. ورأيت أيضًا سمكًا وجهه مثل وجه البوم. ورأيت في تلك السفرة الكثير من العجائب والغرائب.

وفي يوم من الأيّام، وقفت على جانب البحر، وإذا بسفينة كبيرة قد أقبلت وفيها تجّار كثيرون. فلمّا وَصَلَت إلى ميناء المدينة، طوى الريّس قلوعها وأشرعتها، وأرساها على البرّ وأنزل البحريّة جميع الركّاب وأنا واقف أكتب عليهم. وعندما انتهوا قلت لرئيس المركب: "هل بقي في مركبك شيء؟" فقال: "نعم يا سيّدي، معي بضائع في بطن المركب، ولكنّ صاحبها غرق في البحر وصارت بضائعه معنا وديعة." فقلت للريّس: "ما اسم ذلك الرجل صاحب البضائع؟" فقال: "اسمه السندباد البحريّ." فلمّا سمعت كلامه حقّقت النظر فيه فعرفته وصرخت عليه صرخة عظيمة وقلت: "أنا صاحب البضائع! أنا السندباد البحريّ."

ظنّ الريّس في بداية الأمر أنّي أكذب عليه لأستولي على البضاعة. أخبرته قصّتي من أوّلها، وكيف نزل المركب في الجزيرة التي كانت سمكة أكبر من الحوت، وكيف تحرّكت السمكة وغرق بعض

الركّاب وأنا منهم. وحكيت له أيضًا بعض الأمور التي جرت بيني وبينه فصدّقني، وهنّأني بالسلامة.

اخترت من بضائعي التي كانت في المركب هديّة نفيسة قدّمتها للملك مهرجان الذي ظهر له صدق حكايتي، فأحبّني أكثر وأكرمني ووَهَبَني الشيء الكثير مقابل هديّتي. ثمّ بعت بضائعي وكسبت فيها المال الكثير، واشتريت بضاعة أخرى من تلك المدينة. وعندما أراد تجّار المركب السفر، شحنت أغراضي واستأذنت الملك في السفر إلى بلادي وأهلي.

وصلنا بالسلامة إلى مدينة البصرة (يا الله كم كانت فرحتي كبيرة لعودتي إلى بلادي!) وبعدها توجّهت إلى مدينة بغداد، دار السلام، ومعي من الحمول شيء كثير له قيمة عظيمة. ثمّ جئت حارتي واشتريت داري وعقارات كثيرة، وعاشرت الأصحاب وصرت غنيًّا أكثر ممّا كنت في الأوّل. ونسيت ما قاسيت من التعب والغربة وأهوال السفر. لكنّ نفسي اشتاقت للتجارة والتفرّج في بلاد الناس والجزائر واكتساب المعاش. وخطر ببالي السفر ...

قالت شهرزاد:

لكنّ السندباد البحريّ وَعَدَ أصحابه، ومنهم السندباد الحمّال، بأن يروي حكاية سفرته الثانية في ليلة الغد، إن شاء الله. وتوقّف عن الحكي.

وجاء الصباح. وسكتت شهرزاد عن الكلام المباح ...

صرت وحدي!

حكاية السفرة الثانية

قالت شهرزاد:

بلغني أيّها الملك السعيد أنّه لمّا اجتمع السندباد البحريّ بأصحابه، ومنهم السندباد الحمّال، بدأ يقصّ حكاية سفرته الثانية، فقال:

بعد عودتي من سفرتي الأولى إلى مدينة بغداد، عشت ألذّ عيشة. لكن، كما قلت لكم أمس، نفسي اشتاقت للتجارة واكتساب المعاش والتفرّج في بلاد الناس والجزائر. وخطر ببالي السفر. فاشتريت من مالي الوفير بضائع كثيرة وحاجات السفر حزمتها كلّها وحملتها إلى مدينة البصرة. وجدت سفينة مليحة جديدة، كثيرة الرجال والعدّة، نزّلت حمولتي فيها أنا وجماعة من التجّار، وسافرنا في ذلك النهار.

طاب لنا السفر من بحر إلى بحر ومن جزيرة إلى جزيرة. وكنّا كلّما رسونا في محلّ، نقابل التجّار وأرباب الدولة والبائعين والمشترين، ونبيع ونشتري ونقايض بالبضائع.

وفي يوم، أَلقَتنا المقادير على جزيرة جميلة عليها أشجار كثيرة وثمار يانعة (وقد حان قطافها وأكلها)، وأزهار مفتّحة وبكلّ الألوان،

وطيور مرنّمة مغرّدة، وأنهار جارية صافية. ولكن، ما لمحنا فيها لا دار ولا عمار، ولا ناس ولا نافخ بالنار (يعني لا أثر فيها لجنس البشر!)

أرسى الريّس المركب على الجزيرة وطلع الركّاب يتفرّجون على الأطيار المرنّمة والأشجار العالية والأنهار الجارية، ويسبّحون الخالق ويتعجّبون من قدرته وجمال خلقه. وطلعت أنا إلى الجزيرة مع جملة من طلع. وجلست على عين ماء بين الأشجار آكل من ثمارها، وأتلذّذ بالجوّ الصافي والنسيم الرايق والروايح الحلوة الزكيّة. ارتحت في ذلك المكان. وغفوت. ولمّا فقت من نومي ما وجدت حولي أحدًا ... لا إنسيّ ولا جنّيّ! اِنفَشَلتُ! أين المركب؟ وأين الركّاب؟ عجيب!

سار المركب بدوني وما تذكّرني أحد لا من التجّار ولا من البحريّة. تركوني في الجزيرة. وحدي؟ طار صوابي! ورحت أَتَلَفَّتُ إلى اليمين والشمال فما وجدت أحدًا غيري. ارتعبت! وانقهرت ... قهري شديد لا يوصف ... كادت مرارتي تفقع من شدّة الحزن والغمّ. تعبت! وخفت! صرت وحدي ويئست من النجاة، وقلت لحالي: ما كلّ مرّة تسلم الجرّة. في المرّة الأولى، لقيت من أخذني من الجزيرة إلى بلاد العمار. وسلمت. وهذه المرّة؟ هيهات! من يوصلني إلى بلاد العمار والديار؟ صرت أنوح وأبكي على حالي وأندب حظّي حتّى تملّكني القهر. ولمت نفسي على ما فعلته: ماذا حشرني ودفعني للسفر والتعب بعدما كنت في عزّ وراحة في دياري وبلادي؟ ما كان ينقصني شيء: مبسوط بالمأكل الطيّب والمشروب الطيّب والملبس الطيّب! ما كنت بحاجة للمال ولا للبضائع ولا للتجارة، فلماذا تركت بغداد وسافرت في

البحر؟ أما تعلّمت ممّا قاسيته في سفرتي الأولى؟ أما تُبت؟ صرت أتندّم على خروجي من بلدي. وأشرفت على الهلاك. واجهني شبح الموت. فقلت: إنّا لله وإنّا إليه راجعون! وقرّبت من حال المجانين (يعني هه ... صرت مثل المجنون ... تقريبًا!)

وحتّى لا أجنّ بالفعل، قمت على حيلي وصرت أتمشّى في الجزيرة (ما كان بإمكاني القعود أو الجلوس في محلّ واحد). ثمّ طلعت على شجرة عالية وصرت أتلفّت من فوقها إلى اليمين والشمال، فما رأيت غير سماء وماء وأشجار وأطيار وجزائر ورمال. حدّقت النظر فلاح لي في الجزيرة شبح أبيض (أو هكذا تهيّأ لي)، كبير، هائل، عظيم الخلقة. يا الله! ما هذا؟ فكّرت. نزلت من فوق الشجرة وقصدته وصرت أمشي إلى ناحيته. بقيت أمشي إلى أن وصلت إليه، فإذا به قبّة كبيرة بيضاء شاهقة، دائرتها كبيرة واسعة. اقتربت منها ودرت حولها فما وجدت لها أيّ باب. وما كان عندي قوّة ولا حركة للصعود إليها لشدّة علوّها ونعومتها. علّمت مكان وقوفي ودرت حول القبّة لأقيس دائرتها، فجاءت خمسين خطوة. صرت أفكّر في الحيلة التي توصلني إلى داخلها قبل آخر النهار، خصوصًا قبل الغروب ومجيء الليل. وإذا بالشمس قد اختفت وأظلم الجوّ. فلمّا احتجبت الشمس عنّي ظننت أنّ غمامة غطّتها. ولكن كيف؟ من أين يأتي الغمام ونحن في زمن الصيف؟ تعجّبت. رفعت رأسي أتأمّل فيما حصل. فوقع نظري على طير عظيم الخلقة، كبير الجثّة، عريض الأجنحة، يحلّق في الجوّ. هو

الذي غطّى عين الشمس وحجبها عن الجزيرة. ازداد تعجّبي! وتذكّرت حكاية قديمة أخبرني بها من زمان طويل أهل السياحة والسفر.

تروي الحكاية أنّه يوجد في بعض الجزر طير عظيم الخلقة، كبير، يقال له الرُخّ يُطعِم أولاده من الفيلة. عندها، تحقّقت، وتأكّدت أنّ القبّة التي رأيتها إنّما هي بيضة من بيض الرُخّ. فتعجّبت من مخلوقات الله. وبينما أنا على هذه الحالة، إذا بالطائر ينزل على القبّة ويحضنها بجناحيه ويمدّ رجليه من خلفه على الأرض وينام عليها. عندها، جاءتني فكرة. بسرعة، قمت وفَكَكتُ عمامتي من فوق رأسي وثنيتها (طويتها طاقين) وفَتَلتُها حتّى صارت مثل الحبل وتحزّمت بها وشددت وسطي وربطت حالي في رجل الطائر. شددت الرباط بقوّة، وقلت في نفسي: لعلّ هذا يوصلني إلى بلاد المدن والعمار.

بقيت تلك الليلة ساهرًا. خفت إذا نمت أن يقوم الطائر العظيم ويطير ويحلّق بي على حين غفلة. ولمّا طلع الفجر وبان الصباح، قام الطائر من على البيضة وصاح صيحة فظيعة وقلّع فيّ إلى الجوّ. وراح يعلو ويرتفع حتّى ظننت أنّه وصل إلى قلب السحاب وعنان السماء (ومثلما نقول بالدارج وصل لآخر السما). وبعد ذلك، بدأ ينزل بي رويدًا رويدًا، وحطّ على مكان مرتفع. فلمّا وصلت إلى الأرض، أسرعت وفككت الرباط من رجله وأنا خائف منه. خائف؟ مرعوب! لكنّ الطائر ما أحسّ بي. عندها فككت عمامتي منه وخلّصتها من رجله وأنا أنتفض خوفًا ورعبًا. ومشيت. ثمّ أخذ الطائر في مخالبه شيئًا من على وجه الأرض، وطار من جديد إلى عنان السماء. تأمّلت ما حمله،

فإذا هو حيّة عظيمة الخلقة كبيرة الجسم قد أخذها وأقلع بها إلى الجوّ. فتعجّبت من ذلك.

تمشّيت في ذلك المكان إلى أن وجدت نفسي في مكان عالٍ وتحته وادٍ كبير، واسع عميق، وبجانبه جبل عظيم شاهق لا يقدر أحد أن يرى أعلاه من فرط علوّه، ولا يقدر على الطلوع فوقه. فلُمتُ نفسي وقلت: يا ليتني بقيت في الجزيرة. يا ريت! على الأقلّ كان في الجزيرة شيء آكله وأشربه. أمّا هنا فلا أشجار ولا ثمار ولا أنهار. لا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم. أنا كلّما أخلص من شِدّة أقع في ما هو أعظم منها! يا ربّي ما هذا الحظّ المعثّر!

بعد أن ندبت حظّي (كثيرًا)، قمت وقوّيت حالي ومشيت. في الوادي الذي ألقاني فيه طائر الرُخّ، رأيت الفظائع. كانت أرض الوادي من حجر الماس الصلب. ولكن، كلّه حيّات وأفاعي كلّ واحدة منها مثل النخلة العظيمة. ومن كبر الأفعى وهول خلقتها لو جاءها فيل لابتلعته! الله ينجّينا! وكانت تلك الحيّات تظهر في الليل وتختفي في النهار. السبب؟ لا أدري. ربّما لأنّها كانت تخاف من أن يخطفها طير الرُخّ أو النسر ويقطّعها قطعة قطعة. ممكن! والله أعلم!

أقمت في الوادي وأنا أحسّ بالخوف. قليلًا؟ لا! لا! ("كنت أحسّ الخوف كثيرًا،" مثلما قال شاعر من بلادي). أقمت في الوادي وأنا متندّم على ما فعلته. وقلت لحالي: والله إنّي قد عجّلت بهلاك نفسي وموتي. هذه غلطتي أنا. لماذا ما سمعت نصيحة أهلي؟ مضى النهار وولّى، وأنا أمشي في الوادي، وأتلفّت حولي، وأفتّش على محل أبيت

فيه، وأنا خائف من تلك الحيّات الفظيعة! نسيت أكلي وشربي واشتغلت بحالي.

وأنا أدوّر، رأيت مغارة قريبة منّي فمشيت نحوها ووجدت أنّ بابها ضيّق. عال! دخلتها. ونظرت إلى حجر كبير عند بابها فدفعته وسددت به باب المغارة وأنا داخلها. وقلت في نفسي: أكيد داخل المكان آمن من الخارج، على الأقلّ بعيد عن الحيّات! وإن طلع عليّ النهار أطلع وأنظر ما تفعله القدرة الإلهيّة! ثمّ التفتّ حولي داخل المغارة لأجد زاوية أقعد فيها. ويا لهول ما شفت! حيّة ضخمة عظيمة نائمة في صدر المغارة على بيضها. اقشعرّ بدني. انقطع نَفَسي! وتسمّرت في مكاني. وبعد حين، رفعت رأسي وسلّمت أمري للقضاء والقدر. مثلما الله يريد! قلت. بقيت بلا نوم طول الليل. وبقيت عيني مفتّحة وسهرانة إلى أن طلع الفجر ولاح الصبح. فأزحت الحجر الذي سددت به باب المغارة وخرجت منها. ظهرت مثل السكران، دايخ من شدّة السهر والجوع والخوف. ورحت أتمشّى في الوادي أبحث عن طريقة لخلاصي.

وأنا على هذه الحالة، سقطت قدّامي ذبيحة كبيرة. عظيمة. هائلة! ارتعبت! تراجعت إلى الوراء. من أين جاءت هذه الذبيحة؟ نظرت حولي. ما وجدت أحدًا. تعجّبت غاية العجب. وتذكّرت حكاية كنت أسمعها في قديم الزمان من بعض التجّار والمسافرين وأهل السياحة. تقول الحكاية إنّه في جبل حجر الماس مخاطر عظيمة، ولا يقدر أحد أن يسلك إليه (ولا طريق للسير إليه حتّى!) لكنّ التجّار

الذين يجلبون الماس يصلون إليه بالحيلة. كيف؟ يأخذون شاة من الغنم ويذبحونها ويسلخونها ويشرّحون لحمها ويرمونه من على الجبل إلى أرض الوادي. تنزل الذبيحة وهي طريّة فيلتصق بها شيء من الحجارة. يتركها التجّار إلى نصف النهار. فتنزل الطيور من النسور والرُخّ إلى اللحم وتأخذه بمخالبها وتصعد به إلى أعلى الجبل. هنا يأتيها التجّار ويصيحون عليها فتطير وتترك اللحم. عندها يتقدّم التجّار إلى ذلك اللحم ويخلّصون حجارة الماس الملتصقة به. ويتركون اللحم للطيور والوحوش، ويحملون الحجارة إلى بلادهم. ولا أحد يقدر أن يتوصّل إلى أخذ الماس إلّا بهذه الحيلة.

لمّا تذكّرت هذه الحكاية، قمت وجئت إلى الذبيحة. ونقّيت الكثير من الحجارة العالقة بها ووضعته في جيوبي وبين ثيابي. وصرت أنقّي (أكثر وأكثر) أكبر الحجارة عن الأرض من حولي وأُدخِل في جيوبي وحزامي وعمامتي وبين حوائجي (بصراحة، عبّيت ثيابي الداخليّة! لأنّ ما كان معي حوايج أخرى!) وبينما أنا على هذه الحالة، سقطت قدّامي ذبيحة كبيرة ثانية. بسرعة، ربطت حالي عليها بعمامتي، ونمت على ظهري وجعلتها على صدري وأنا قابض عليها بيديّ الاثنتين، فصارت عالية عن الأرض. وفجأة، نزل نسر كبير على تلك الذبيحة وقبض عليها بمخالبه واقتلعها من الأرض وقلّع بها إلى الجوّ وأنا معلّق بها. طار النسر وصار يحلّق ويحلّق (وأنا معلّق بمخالبه) إلى أن صعد إلى أعلى الجبل وحطّ بالذبيحة، وأراد أن ينهش منها!

طار صوابي! هل أنجو من مخالب الرُخّ لأقع في مخالب النسر! توقّف قلبي عن الخفقان. هل هذه نهايتي؟ هل أصير وليمة للنسر وفراخ النسر؟ وأنا أندب حظّي، إذا بصيحة عظيمة عالية تجيء من خلف النسر، وشيء يخبط بخشب على الجبل. جفل النسر وخاف وطار إلى الجوّ! رُدَّت لي روحي. واستعدت أنفاسي. ففككت نفسي من الذبيحة وكانت ثيابي قد تلوّثت من دمها وانجوت من التراب. وقفت بجانبها أتأمّلها. وإذا برجل تقدّم إليها (لا شكّ أنّه هو الذي صاح على النسر). رآني بجانبها، لكنّه ما كلّمني. ارتعب! (يبدو أنّه فزع منّي!) وبدون أيّ كلمة، أتى إلى الذبيحة وقلّبها من جهة إلى جهة، فوق وتحت وتحت وفوق، فما وجد أيّ شيء. عندها صاح صيحة عظيمة وقال: "يا خيبتي! ويا خسارتي! لا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم!" وراح يندب حظّه ويضرب كفًّا بكفّ ويقول: "أيّ شي أعمل؟ يا حسرتي! أيش هالحال؟" تقدّمت إليه، فقال لي: "من أنت؟ وما سبب مجيئك إلى هذا المكان؟" فجاوبته: "لا تَخَف يا أخي! أنا لست من الشياطين ولا من العفاريت ولا من الجنّ! أنا إنسيّ ومن خيار الإنس. أنا تاجر. حكايتي عظيمة وقصّتي غريبة. وسبب وصولي إلى هذا الجبل وهذا الوادي له حكاية عجيبة. فلا تَخَف! لك منّي ما يسرّك. أنا معي شيء كثير من حجر الماس وسأعطيك منه ما يكفيك. وتأكّد أنّ كلّ قطعة معي أحسن من كلّ شيء يأتيك. فلا تجزع ولا تَخَف."

عندها، ارتاحت أسارير الرجل. فتقدّم منّي وشكرني، ودعا لي وتحدّث معي. وإذا بالتجّار الآخرين سمعوا كلامي مع رفيقهم فجاؤوا إليّ. وكان كلّ تاجر رمى ذبيحة. فلمّا قدموا علينا، سلّموا عليّ وهنّأوني بالسلامة وأخذوني معهم. فأخبرتهم بسبب وصولي إلى هذا الوادي. وأعلمتهم بقصّتي وما قاسيته في سفرتي. ثمّ أعطيت لصاحب الذبيحة التي تعلّقت فيها الشيء الكثير ممّا كان معي (كما وعدته. وهو الآن صاحبي على كلّ حال!) ففرح بها ودعا لي وشكرني على ذلك. وقال التجّار: "والله، كُتِب لك عمر جديد. فما أحد وصل إلى هذا المكان قبلك ونجا منه. ولكن، الحمد لله على سلامتك."

بات التجّار ليلتهم في مكان مليح بأمان. وبِتُّ عندهم وأنا فرحان غاية الفرح بسلامتي ونجاتي من وادي الحيّات، ووصولي إلى بلاد العمار (وبين بني البشر). ولمّا طلع النهار، قمنا وسرنا على ذلك الجبل العظيم وصرنا ننظر إلى الوادي من فوق. ورأينا حيّات كثيرة. فقال صاحبي: "والله نجاتك أعجوبة! الله ينجّينا ويشفق علينا مثلما نجّاك وسلّمك."

بقينا سائرين إلى أن وصلنا إلى بستان في شبه جزيرة كبيرة وجميلة وفيها شجر الكافور. كلّ شجرة منه يستظلّ تحتها مئة إنسان (عن جدّ بدون مبالغة!) وإذا أراد أحد أن يأخذ ماء الكافور يثقب أعلى الشجرة بشيء طويل فينزل الماء ويعقّد مثل الصمغ وهو ما يعرف بعسل الكافور. وبعد ذلك تيبس الشجرة وتتحوّل إلى حطب.

وفي تلك الغابة العظيمة والمليحة صنف من الوحوش يقال له الكركدنّ يرعى فيها مثلما يرعى البقر والجاموس في بلادنا. لكنّ جسم الكركدنّ أكبر من جسم الجمل ويأكل العَلَق، أي كلّ ما علق على الشجر من الثمار. (يعني هو وحش غير مفترس؟ تسألون. الله أعلم!) والكركدنّ دابّة كبيرة لها قرن واحد غليظ في وسط رأسها طوله قدر عشرة أذرع. أنا شخصيًّا ما وقعت عيني عليه، ولكن هكذا قيل لي. وقيل لي أيضًا إنّ في وجهه صورة إنسان (يعني يشبه الإنسان. عجيب!) وقد قال لنا البحريّون المسافرون وأهل السياحة في الجبل والأراضي إنّ هذا الكركدنّ الوحش يحمل الفيل الكبير على قرنه ويسير به في الغابة والسواحل ولا يشعر به. ويموت الفيل على قرن الكركدنّ ويسيح دهنه من حرّ الشمس على رأسه ويدخل في عينيه فيعمى الكركدنّ ويرقد في جانب الشاطئ. فيجيء طير الرُخّ ويحمله في مخالبه ويروح به عند أولاده ويطعمهم به وبالفيل الذي على قرنه (عندها فقط استوعبت حكاية الرُخّ الذي يزقّ أولاده بالأفيال!) وفي شبه الجزيرة تلك صنف من البقر الكبير. ورأيت فيها أيضًا الكثير من صنف الجاموس الذي ليس له عندنا نظير.

أخبار شبه الجزيرة المليحة ما أنستني مغامراتي في وادي الحيّات وجبل الماس. فأخبرت رفاقي أنّ في ذلك الوادي الكثير من حجر الماس الذي حملته معي وخبّأته في جيوبي وثيابي. فقايضوني عليه ببضائع من عندهم، وحملوها لي معهم، وأعطوني ثمن الباقي دراهم ودنانير. بقينا مسافرين من بحر إلى بحر ومن جزيرة إلى جزيرة، وأنا أتفرّج

على بلاد الناس وعلى ما خلق الله من الأودية والمدن، وأبيع وأشتري إلى أن وصل بنا المركب إلى مدينة البصرة، فأقمت فيها لأيّام قليلة. ثمّ جئت إلى مدينة بغداد، دار السلام، وجئت إلى حارتي ودخلت داري ومعي من حجر الماس شيء كثير، ومعي مال ومتاع وبضائع. واجتمعت بأهلي وأقاربي (لا يمكن أن تتصوّروا كم كانت فرحتي عظيمة!) ثمّ تصدّقت ووهبت وأعطيت وهاديت جميع أهلي وأصحابي.

وعدت إلى حياتي الأولى من الأكل الطيّب والشرب الطيّب واللبس المليح. وصرت أعاشر وأرافق (أصدقاء جدد، ورفاق الطفولة، طبعًا ما نسيتهم!) ولكن! نسيت جميع ما كنت قاسَيتُه في سفرتي. وبقيت في أهنأ عيش وصفاء خاطر وانشراح صدر، وأنا في لعب وطرب. وصار كلّ من يسمع بقدومي يجيء إليّ ويسألني عن حال السفر وأحوال البلاد التي زرتها، فأخبره وأحكي له ما لقيته، فيتعجّب من شدّة ما قاسيته ويهنّئني بالسلامة.

وهكذا يا أصحابي، عشت عيشة لذيذة، وقضيت أحلى الأوقات مع الأحباب والأصحاب، آكل وأشرب وأطرب وأساعد المحتاج. وما نسيت أصحابي الجدد (وناول السندباد الحمّال كمشة ذهب). لكنّي نسيت ما قاسيته من أهوال في سفرتي الثانية. واشتقت للتجارة والتفرّج في بلاد الناس والجزر البعيدة. وخطر ببالي السفر (من جديد) ...

قالت شهرزاد:

لكنّ السندباد البحريّ وَعَدَ أصحابه، ومنهم السندباد الحمّال، بأن يروي حكاية سفرته الثالثة في ليلة الغد، إن شاء الله. وتوقّف عن الحكي.

وجاء الصباح. وسكتت شهرزاد عن الكلام المباح ...

حكاية السفرة الثالثة

قالت شهرزاد:

بلغني أيّها الملك السعيد أنّه لمّا نظر السندباد الحمّال إلى هديّة السندباد البحريّ ما صدّق عينيه! مئة مثقال ذهب! معقول! مع كلّ ما قاساه لتحصيل ثروته! تعجّب السندباد الحمّال من كرم السندباد البحريّ. شكره ودعا له بالتوفيق. وراح ينام في بيته (هذا إذا قدر أن ينام بعد كلّ ما سمعه من عجائب وغرائب!) وفي الصباح، جاء إلى بيت السندباد البحريّ كما طلب منه. رحّب السندباد البحريّ بسميّه، وصاحبه الجديد، وصار يناديه بالسندباد البرّيّ. وجلس معه حتّى وصل باقي أصحابه وجماعته. وفي المساء، بعد أن أكلوا وشربوا وانبسطوا، بدأ السندباد البحريّ بحكاية سفرته الثالثة، فقال:

بعد عودتي بالسلامة من وادي الحيّات وجبل الماس، قلت: التوبة! هذه آخر سفرة! أقمت بمدينة بغداد مدّة من الزمان وأنا في غاية الحظّ وصفاء العيش والبسط. فاشتاقت نفسي إلى السفر والفرجة، وتشوّقت إلى المتاجرة والكسب. بعد كلّ ما قاسيته؟ ما تبت؟ طمع أم حبّ المغامرة؟ لا أعرف. المهمّ، رحت واشتريت الكثير من البضائع المناسبة لسفر البحر. حزمتها وحمّلتها على زورق انحدر

بي من مدينة بغداد إلى مدينة البصرة. وجئت إلى المينا، فرأيت مركبًا عظيمًا وفيه ركّاب كثيرون، أهل خير وناس ملاح. كيف عرفت؟ سفراتي علّمتني. استبشرت بالخير والسلامة. نزلنا في المركب. وانطلق بنا على بركة الله.

سار بنا المركب من بحر إلى بحر ومن جزيرة إلى جزيرة ومن مدينة إلى مدينة. وفي كلّ مكان مررنا عليه كنّا نتفرّج ونبيع ونشتري ونحن في غاية الفرح والسرور. وفي يوم من الأيّام، كنّا في وسط البحر، وكان الموج يعجّ عجًّا! ذكّرني بقصص قرأتها عن البحر "العَجّاج المتلاطم بالأمواج." وإذا برئيس المركب ينظر إلى نواحي البحر الهايج المايج ويلطم على وجهه. ثمّ طوى قُلوع المركب وأشرعته ورمى مراسيه، وبدأ ينتف لحيته ويمزّق ثيابه ويصيح صياحًا عظيمًا. فقلنا له: "ما الخبر يا ريّس؟" فقال: "يا ركّاب السلامة! اِعلَموا أنّ الريح غلبتنا، والعاصفة الشديدة دفعت بنا إلى وسط البحر. ولسوء حظّنا، رمتنا المقادير إلى جبل الزغب، وهم قوم أقزام مثل القرود. وما وصل أحد إلى هذا المكان وسلم منه قطّ. وأخشى أنّنا لن نسلم أبدًا. قلبي يحسّ بهلاكنا كلّنا." وعندها، فتح الريّس عينيه وحَملَقَ بنا. بَحلَقَ بعيون الركّاب الفزعانين، وصرخ: "كلّنا يعني كلّنا!"

ما إن أتمّ الريّس كلامه حتّى جاءنا الأقزام القرود وقد أحاطوا بالمركب من كلّ جانب. ما أكثرهم! كانوا مثل الجراد منتشرين في المركب وعلى البرّ. خفنا إن قتلنا منهم أحدًا أو ضربناه أن يقتلونا لكثرتهم، والكثرة تغلب الشجاعة. وكنّا خائفين أن ينهبوا أرزاقنا

ومتاعنا. وطبعًا كنّا مرعوبين من أشكالهم، وهم أقبح من الوحوش، وعليهم شعر مثل اللبّاد. صدّقوني إذا قلت لكم إنّهم مثل القرود المتوحّشين، إنّما صغار وقصار، طول الواحد منهم أربعة أشبار. منظرهم يفزّع وما كنّا نفهم كلامهم. طلعوا على حبال المرساة وقطّعوها بأسنانهم، وقطّعوا كلّ حبال المركب من كلّ الجوانب. فمال المركب من الريح ورسا على جبلهم. ولمّا صار في برّهم، قبضوا على جميع البحريّة والركّاب وطلعوا إلى الجزيرة. أخذوا المركب واختفوا. تركونا في الجزيرة، وما عرفنا أين راحوا بالمركب وأيّ شيء عملوا فيه.

بقينا في الجزيرة نأكل من ثمارها ونشرب من أنهارها. ونحن في هذه الحالة، لاح لنا من بعيد بيت عامر كأنّ فيه حركة إنس. مشينا إليه فإذا هو قصر كبير، أسواره عالية، وله باب مفتوح بدرفتين من خشب الأبنوس. دخلنا. فوجدنا حالنا في حَضير واسع مثل الحوش الكبير، في دائره أبواب كثيرة عالية، وفي صدره مصطبة كبيرة مرتفعة فيها أواني طبيخ معلّقة على الكوانين وحواليها عظام كثيرة. خفنا. ما هذي العظام؟ تردّدنا بالدخول. ولكن إلى أين نهرب؟ دخلنا إلى الحضير ونظرنا حوالينا فما رأينا أحدًا. تعجّبنا! كلّ هذا القصر الطويل العريض ولا يسكنه أحد! جلسنا نرتاح قليلًا. فغفونا. ونمنا طويلًا! يبدو أنّنا بقينا نائمين كلّ النهار، من طلوع الشمس إلى غروبها. صحونا مذعورين. الأرض ارتجّت من تحتنا وسمعنا دويًّا من الجوّ. ما هذا؟ هزّة أرضيّة؟ انفجار؟

ونحن نتلفّت مرعوبين، إذا بشيء ضخم يهبط علينا من أعلى القصر: شخص عظيم الخلقة بهيئة إنسان. نظرنا إليه مذهولين. الله ينجّينا! جسم ضخم وبشع! قامة طويلة هائلة كأنّها نخلة عظيمة! كلّ عين من عينيه مثل شعلة النار. فمه كبير فظيع مثل فتحة البير، وأنيابه مثل أنياب الخنازير. ويا ويلي من شفاتيره وأذنيه! شفتاه مثل مشافر الجمل مرخيّة على صدره، وكلّ أذن مدندلة على أكتافه مثل البطّانيّة (بلا مبالغة!) وأظافر يديه! مثل مخالب السبع. لمّا شفنا هذه الهيئة المرعبة، نظرنا إلى بعضنا غير مصدّقين. كيف أصف لكم حالتنا؟ ذعر؟ خوف؟ فزع؟ شيء لا يوصف. اِلتَفَتُّ حولي. بعض رفاقي غاب عن الوعي. عندها، قَوِيَ خوفي واشتدّ فزعي. تسمّرنا محلّنا مذهولين فزعانين لا نعرف ما نعمل. وصرنا مثل الموتى.

لمّا نزل الوحش العملاق على الأرض، قعد على المصطبة، ثمّ قام وجاء عندنا. قبض على يدي وسحبني من بين أصحابي التجّار. رفعني عن الأرض وراح يقلّبني بيده مثل اللقمة الصغيرة. صار يدسدس فيّ ويجسّني مثلما يتحسّس الجزّار ذبيحة الغنم. فوجدني ضعيفًا وما فيّ شيء من اللحم. أطلقني وأخذ غيري. قلّبه كما قلّبني وجسّه مثلما جسّني وأطلقه. وراح يجسّ رفاقي ويقلّبهم واحدًا واحدًا إلى أن وصل إلى رئيس المركب، وهو رجل سمين وقويّ، أكتافه عريضة وعضلاته مفتولة. فأعجبه. قبض على الريّس مثلما يقبض الجزّار على ذبيحته. رماه على الأرض ووضع رجله على رقبته فقصفها. وجاء بسيخ طويل أدخله فيه وأوقد النار وركّب عليها السيخ. وبقي يقلّبه على الجمر

حتى استوى لحمه. طلّعه من النار وحطّه قدّامه وفسخه وصار يقطّع لحمه بأظافره ويأكل منه. كنّا ننظر إليه غير مصدّقين، لا صوت ولا حركة. وأنا؟ اِنشَلَّت مفاصلي! وانقطع نَفَسي! كان يمكن أن أكون أنا محلّ الريّس لولا أنّ تعب السفر خلّصني من شحمي ولحمي!

بقي الوحش العملاق يأكل لحم الريّس وينهش عظمه حتّى ما بقي من لحمه شيء، ورمى باقي العظم فوق تلّة العظام في زاوية المصطبة. ثمّ انطرح ونام وصار يشخر مثل الثور المذبوح. نام حتّى الصباح. ثمّ قام وخرج.

عندها فقط وعينا على حالنا. التفتنا إلى بعضنا. وبكينا على أرواحنا. وقلنا: "يا ليتنا غرقنا في البحر أو أكلتنا القرود! كان أفضل من الشوي عالجمر. هذا موت رهيب. لا حول ولا قوّة إلّا بالله!" ماذا أقول لكم؟ متنا من الخوف ومن الحزن. ما بقي لنا نجاة. وأكثر ما حزّ في قلوبنا أن نموت في هذا المكان دون أن يدري بنا أحد.

خرجنا من القصر نفتّش عن مكان نختفي فيه، أو نهرب، وقد هان علينا أن نموت بدل أن يُشوى لحمنا بالنار. فما وجدنا أيّ مكان آمن. أَدرَكَنا المساء، فعدنا إلى القصر خائفين. وبعد قليل، اِرتَجَّت الأرض وأقبل علينا الوحش العملاق وصار يقلّبنا ويجسّنا حتّى أعجبه واحد منّا فقبض عليه وشواه وأكله! تمامًا مثلما فعل بالريّس أوّل يوم! ونام. ولمّا طلع النهار قام وراح في سبيله وتركنا نندب حظّنا.

قال واحد منّا: "والله يا جماعة، أن نلقي أنفسنا في البحر ونموت غرقًا خير من هذه الموتة الشنيعة."

وقال آخر: "اسمعوا كلامي، لمَ لا نحتال عليه ونقتله ونرتاح من همّه ونريّح العالَم من ظلمه؟"

فقلت لهم: "اسمعوا يا إخواني. إن كان ولا بدّ من قتله، فالأفضل أن ننقل بعض الحطب والخشب ونحوّله إلى فلك مثل المركب. وبعدها نحتال عليه ونقتله وننزل في الفلك ونروح في البحر. إلى أين؟ أيّ محلّ. ويمكن أيضًا بعد قتله، أن نقعد في هذا المكان حتّى يمرّ علينا مركب فننزل فيه."

"وإن لم نقدر على قتله؟" سألني أحدهم.

قلت: "ننزل ونروح في البحر ولو غرقنا، على الأقلّ نهرب من الذبح ومن الشوي عالنار. فإن سَلِمنا سَلِمنا، وإن غرقنا نموت شهداء."

فقالوا جميعًا: "والله هذا رأي سديد."

اتّفقنا، ونقلنا الأخشاب إلى خارج القصر، وبدأنا بصنع الفلك. ولمّا انتهينا، ربطناه إلى جانب البحر ونزّلنا فيه بعض الزاد، وعدنا إلى القصر. لماذا عدنا؟ ولكن أين نروح؟

حلّ المساء، وارتجّت الأرض، ودخل علينا الوحش العملاق مثل الكلب المعقور (كَلبان). قَلَّبَنا وجسّنا حتى أعجبه واحد منّا فقبض عليه وشواه وأكله! تمامًا مثلما فعل بسابقه. ونام. لمّا صار شخيره مثل الرعد، قمنا وأخذنا سيخين من أسياخ الحديد المنصوبة ووضعناهما في النار حتّى صارا مثل الجمر. قبضنا عليهما بقوّة وجئنا إلى الوحش ووضعنا السيخين على عينيه واتّكأنا عليهما مجموعين.

وبقوّة وعزم، أدخلنا السيخين في عينيه وهو نائم. صاح صيحة عظيمة، فارتعبت قلوبنا وهربنا. ثمّ قام وصار يفتّش علينا ونحن نهرب منه يمينًا وشمالًا دون أن يرانا. لقد عمي بصره. فخفنا منه أكثر. وأيقنّا بالهلاك. ويئسنا من النجاة.

قام الوحش العملاق وراح يتحسّس طريقه نحو الباب وهو يصيح ونحن في غاية الرعب. كانت الأرض ترتجّ من تحتنا من شدّة صياحه. خرج وهو يدوّر علينا. ثمّ رجع ومعه أنثى أكبر منه وأوحش وأبشع. فازداد خوفنا (كثيرًا!) أسرعا إلينا. هربنا. كيف؟ والله نسيت! كلّ ما أذكره أنّنا خرجنا من الحوش الواسع، وفككنا الفلك الذي صنعناه ونزلنا فيه ودفعناه في البحر. تَبِعَنا الوحش وأنثاه العملاقة، وصارا يرجماننا بصخور كبيرة كانا يحملانها، إلى أن مات أكثرنا من الرجم. وبقي منّا ثلاثة أشخاص: أنا واثنان من أصحابي التجّار.

طلع بنا الفلك إلى جزيرة بعيدة عن جزيرة العملاق، فمشينا فيها الى آخر النهار. وجاء الليل فنمنا قليلًا. ولكن لا تظنّوا أنّنا نجونا. صحونا على حركة وفحيح! التفتنا، فإذا بثعبان عظيم الخلقة كبير الجثّة واسع الجوف قد أحاط بنا. وصل لواحد منّا، بَلَعَه لعند أكتافه، ثمّ بلع الباقي. يا ويلي! سمعت أضلاع رفيقي تتكسّر في بطن الثعبان قبل أن ينجز عليه ويروح في سبيله. نظرت إلى رفيقي الحيّ فوجدته في حالة أسوأ من حالتي. تعجّبنا ممّا شهدناه. وحزنّا على رفيقنا، وتملّكنا الخوف على نفسنا. قال رفيقي: "والله هذا أمر عجيب! كلّ موت أبشع من سابقه. فرحنا بسلامتنا من الوحش فما

تمّت الفرحة. لا حول ولا قوّة إلّا بالله. لقد نجونا من القردة الأقزام، ومن العملاقَين، ومن الغرق. كيف ننجو من هذه البلوى؟"

قمنا ومشينا في الجزيرة، وأكلنا وشربنا. وفي المساء، وجدنا شجرة عالية فطلعناها لننام فوقها. وطلعت أنا إلى أعلى فروعها أراقب وأترقّب بهلع كبير. تذكّرت ليلة الرعب التي عشتها في مغارة وادي الحيّات. وصرت أندب حظّي. لمّا أظلم الليل، جاء الثعبان. تَلَفَّتَ يمينًا وشمالًا، ثمّ زحف نحو الشجرة حتّى وصل إلى رفيقي وبلعه وأنا أنظر إليه بعينيّ. ثمّ التفّ به على الشجرة فسمعت عظمه يتكسّر في بطنه. بعد أن بلع الثعبان آخر رفاقي، نزل من فوق الشجرة وراح في طريقه. وأنا بقيت مكاني. هل سمّرني الخوف؟ أم أنّي ما عدت أخشى الموت؟ يعني أيّ شي يمكن يصير أكثر ممّا صار؟ قلت لحالي.

لمّا طلع الضوء، نزلت من فوق الشجرة وأنا ميّت من الخوف والفزع. خَلَص! صرت وليمة للثعبان، فكّرت. أردت أن أرمي نفسي في البحر وأستريح من الدنيا. فما هانت عليّ روحي. وفكّرت بخطّة تنقذني. ربطت خشبة عريضة على أقدامي بالعرض، وربطت واحدة مثلها على جنبي الشمال ومثلها على جنبي اليمين ومثلها على بطني، وربطت واحدة طويلة عريضة من فوق رأسي بالعرض، مثل التي تحت أقدامي، وصرت أنا في وسط الخشبات. شددت الأربطة شدًّا وثيقًا، وارتميت على الأرض، ونمت بين الأخشاب المحيطة بي كالمقصورة. وفي الليل، أقبل الثعبان ونظر إليّ وقصدني. بَحلَقتُ

بعينيه، وفَحَحتُ في وجهه (بصوت يشبه الفحيح الذي سمعته في وادي الحيّات): "أَفحَمتُكَ! تَحَرَّك نحوي ... حاوِل ... تَحَرَّك! أَتَحَدّاك!"

لم يقدر الثعبان أن يبلعني مع الأخشاب المربوطة بي من كلّ جانب. فدار حولي، وما استطاع الوصول إليّ. كنت أنظر بعينيّ وأنا ميّت من الخوف والفزع. وصار الثعبان يبعد عنّي ويرجع ... يبعد ويرجع ... وكلّما حاول الوصول إليّ ليبلعني تمنعه الأخشاب المشدودة عليّ. وبقي يحاول من المغرب إلى طلوع الفجر. بان النور وأشرقت الشمس فمضى الثعبان في سبيله وهو في غاية القهر والغيظ. "رُح فَتِّش عرزقك بغير محلّ!" قلت بشماتة. ومن حلاوة الروح، مددت يدي وفككت نفسي من الأخشاب وأنا أقرب إلى الأموات. فما قاسيته من ذلك الثعبان أكبر وأفظع ممّا عشته في وادي الحيّات!

قمت ومشيت لآخر الجزيرة. التفتّ ناحية البحر فوقع نظري على مركب بعيد في وسط الماء. أخذت فرع شجرة ولوّحت به وأنا أصيح على الركّاب. لمّا رأوني قرّبوا مني وسمعوا صياحي، فجاؤوا إليّ وأخذوني معهم في المركب. كنت على آخر نَفَس. سقوني ماء وأعطوني شيئًا للأكل، وبدّلوا ثيابي بثياب نظيفة من عندهم. انتعش قلبي ورُدَّت لي روحي. سألوني عن حالي فأخبرتهم بما جرى لي من أوّله لآخره. استغربوا. ما صدّقوني؟ المهمّ أنّهم تعجّبوا ممّا قاسيته من الشدائد وقدّموا لي المزيد من الأكل والماء البارد. فأكلت وشربت وارتحت. وغفوت. ولمّا صحوت، شعرت براحة عظيمة. فالله أحياني بعد موتي.

حمدته على نعمته. ورحت أتمشّى في المركب. ارتاحت نفسي بعدما شفت الموت بعيوني، وقَوِيَت همّتي حتّى تخيّلت أنّني كنت في المنام.

بقينا مُبحرين وقد طابت لنا الريح إلى أن أشرفنا على جزيرة يقال لها جزيرة السلاهطة (والبعض يلفظ الاسم بالشين، الشلاهطة). فأوقف الريّس المركب، ونزّل التجّار بضائعهم ليبيعوا ويشتروا. التفت الريّس إليّ، وهو صاحب المركب، وقال: "اِسمَع! أنت رجل غريب وفقير وقاسيت الكثير من الأهوال. ومرادي أنفعك بشيء يعينك على الوصول إلى بلادك وتصير تدعو لي." فقلت له: "الله يخلّيك!" فقال: "اِعلَم أنّه كان معنا رجل مسافر فقدناه ولا نعرف إذا هو على قيد الحياة أم مات. بنيّتي أعطيك حمولته لتبيعها في هذه الجزيرة، ونعطيك ثمن تعبك. وما يبقى من هذه البضاعة نحمله معنا إلى مدينة بغداد فنسأل عن أهله ونعطيهم بقيّتها وثمن ما بيع منها. ما رأيك؟ هل تتسلّمها وتبيعها مثل التجّار؟" أعجبتني الفكرة. أبيع مثل التجّار! قبلت العرض. وشكرت صاحب المركب على فضله. ودعوت له. عندها أمر الحمّالين بإخراج البضائع وتسليمها لي. فقال كاتب المركب: "يا ريّس باسم مَن من التجّار نكتب هذه الحمولة؟" فقال: "اكتب عليها اسم السندباد البحريّ الذي كان معنا وغرق." وأَعلَمَ الكاتب بما قرّره بشأن هذه البضاعة. فلمّا سَمِعتُ كلام الريّس، انقطع نَفَسي ... وقلت لحالي: أنا السندباد البحريّ ... وأنا ما غرقت.

صبرت إلى أن طلع التجّار من المركب، فتقدّمت إلى الريّس وقلت له: "يا سيّدي، هل تعرف صاحب الحمولة التي سلّمتها لي لأبيعها؟" فقال: "كلّ ما أعرفه أنّه رجل من بغداد اسمه السندباد البحريّ. لمّا رسونا على جزيرة، فقدناه مع مجموعة من الركّاب. ومن يومها ما سمعنا منه لا علم ولا خبر ... أعتقد أنّه غرق ... " عندها صرخت: "لا لا لا. يا ريّس أنا السندباد البحريّ ... ما غرقت. يا ريّس السلامة، اسمعني، والله أنا السندباد البحريّ، ولم أغرق. ولكن لمّا رسونا على الجزيرة، طلعت أنا مع جملة الناس. وهناك أكلت وشربت وتلذّذت بالجلوس، فنمت في ذلك المكان وغرقت في النوم. ولمّا قمت، ما وجدت لا المركب ولا الركّاب. هذه البضائع بضائعي. اِسأل التجّار عنّي ... اِسأل تجّار الماس فهم يشهدون بأنّي السندباد البحريّ. هم وجدوني في جبل الماس وأخبرتهم قصّتي وكيف تركني المركب وبقيت وحدي."

سمع الركّاب صراخي وكلامي مع الريّس فتجمّعوا علينا. منهم من صدّقني ومنهم من كذّبني. ولمّا احتدّ النقاش وارتفعت أصواتنا بذكر الماس وجبل الماس، نهض أحد التجّار وتقدّم نحوي وقال لهم: "اسمعوا يا جماعة، تذكرون ما أخبرتكم عن أعجب ما رأيت في أسفاري؟ لمّا رميت ذبيحتي في وادي الماس وطلع معها رجل معلّق بها؟ يومها كذّبتموني." فقالوا: "نعم ... نعم ... حكيت لنا هذه الحكاية وما صدّقناك." فقال لهم التاجر: "هذا هو الرجل الذي تعلّق بذبيحتي. يومها، أعطاني من حجر الماس ما قلّ نظيره وعوّضني أكثر ممّا كنت

أتوقّع. وقد أعلمني ورفاقي التجّار أنّ اسمه السندباد البحريّ، وأخبرنا كيف تركه المركب على الجزيرة وما جرى له في وادي الحيّات وجبل الماس. وبعدها اصطحبناه معنا إلى مدينة البصرة ومن هناك وَدَّعَنا وتوجّه إلى بلده. صدّقتم كلامي الآن؟ هذا هو السندباد البحريّ. وهذه البضائع كلّها رزقه وماله. وهو صادق فيما يقوله." قال التاجر هذا وشدّ على يدي فتأكّدت أنّه صاحبي.

لمّا سمع الريّس كلام التاجر جاء عندي وحقّق فيّ النظر. نظرت إليه وقلبي يدقّ. وانتظرت. نسيت كم انتظرت. أو أنّي ما حسبت الزمن! بعد وقت طويل، سألني الريّس: "ما علامة بضائعك؟" أعلمته بعلامة بضائعي. وأخبرته بأمر كان بيني وبينه لمّا نزلنا من البصرة. فتحقّق أنّي أنا السندباد البحريّ. فعانقني وسلّم عليّ وهنّأني بالسلامة. وبعد أن تعجّب من قصّتي واستغرب ما جرى لي، ردّ لي بضائعي.

تخيّلوا كم كانت فرحتي عظيمة بسلامتي وعودة مالي إليّ. تصرّفت في بضائعي بمعرفتي وربحت في تلك السفرة الشيء الكثير. ما كسبته لا يُعَدّ ولا يُحصى. وهذا أعجب ما رأيته في هذه السفرة!

بقيت أنا ورفاقي التجّار نبيع ونشتري في جزيرة السلاهطة إلى أن وصلنا إلى بلاد السند حيث بعنا واشترينا ورأينا الكثير من العجائب: سمكة تشبه البقرة وأخرى تشبه الحمار، وطير يخرج من صدف البحر ويبيض ويفرّخ على وجه الماء ولا يطلع من البحر أبدًا.

واصلنا السفر بسلام إلى أن وصلنا إلى البصرة حيث أقمت عدّة أيّام جئت بعدها إلى بغداد. وتوجّهت إلى حارتي ودخلت بيتي وسلّمت على أهلي. كيف أصف لكم فرحتي بسلامتي وبعودتي إلى بلادي ومدينتي وديياري، وسعادتي بلقائي أهلي وأصحابي وأصدقائي؟ وانبسطت بثروتي. فتصدّقت ووهبت وكسوت الأرامل والأيتام. وبقيت على هذه الحالة، آكل وأشرب وألهو وأطرب. وما نسيت الأحباب والأصحاب (وناول السندباد الحمّال كمشة ذهب). لكنّي نسيت تعب البحر. واشتاقت نفسي للمغامرة. وخطر ببالي السفر ...

قالت شهرزاد:

عندها، وَعَدَ السندباد البحريّ أصحابه، ومنهم السندباد البرّيّ، بأن يروي حكاية سفرته الرابعة في ليلة الغد، إن شاء الله. وتوقّف عن الحكي.

وجاء الصباح. وسكتت شهرزاد عن الكلام المباح ...

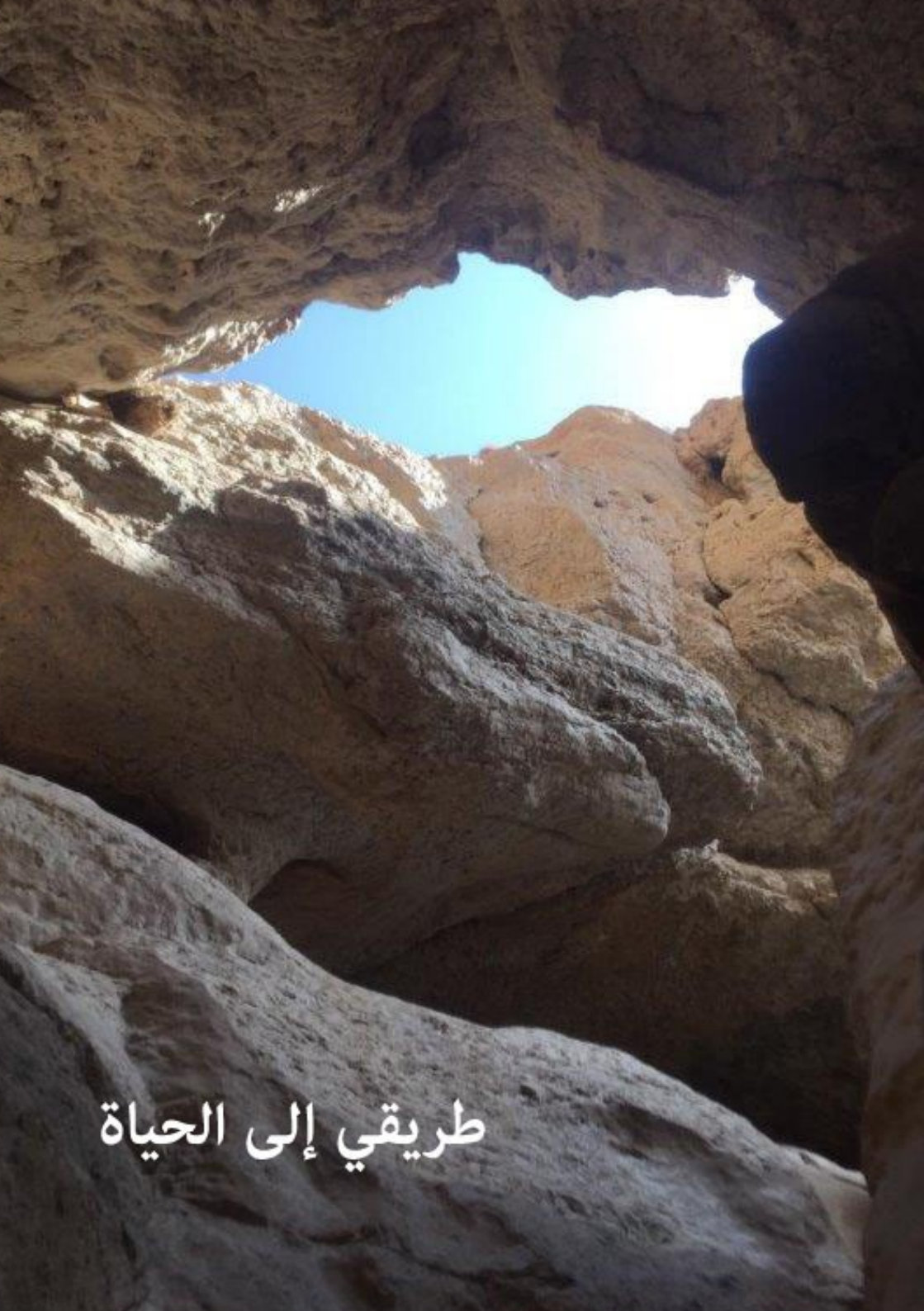
طريقي إلى الحياة

حكاية السفرة الرابعة

قالت شهرزاد:

بلغني أيّها الملك السعيد أنّ السندباد الحمّال ما نام كلّ الليل وهو يفكّر متعجّبًا من مغامرات السندباد البحريّ. وتشوّق لسماع حكاية سفرته الرابعة. فجاء لعنده في الصباح الباكر وطلب منه أن يخبره حكايته. فقال له السندباد البحريّ: "طوّل بالك يا صاحبي! حتّى يحضر باقي الأصحاب." فردّ السندباد البرّيّ: "والله يا أخي، ما قدرت أنام كلّ الليل. الله يخلّيك كمّل لي حكايتك. خبّرني." لكنّ السندباد البحريّ انتظر إلى أن حضر بقيّة أصحابه. وجاء المساء، فأكلوا وشربوا وانبسطوا. وبدأ بالحكي، فقال:

بعد نجاتي من الثعبان الفجعان، والعملاق الكلبان، وسليلة القزم السعدان، وعودتي إلى أهلي وبلادي، قلت لحالي: اعقل يا سندباد! الله أنعم عليك بالسلامة والربح الكثير. اِنسَ البحر وغدر البحر! هنا أرضك وبيتك. وهكذا صار! عشت في بغداد أفضل عيشة، مبسوط ومرتاح، وبيتي مفتوح للرايح والجايي: أصحاب وأحباب، أكل وشرب وغناء وسهر. وبعد مدّة، نفسي اشتاقت للسفر. نسيت أنّي تبت. ونسيت كلّ الخطر. وما بقي في ذاكرتي إلّا السفر.

اشتريت حاجات خاصّة نفيسة تناسب البحر. ولأنّي بطبعي تاجر، تزوّدت ببضاعة كثيرة للتجارة (أكثر من كلّ مرّة)، حمّلتها على زورق انحدر بي من بغداد إلى البصرة. وبصحبة جماعة من أكابر البصرة والتجّار، حمّلت أغراضي في سفينة كبيرة ونزلنا في البحر. وراحت السفينة تقشر وجه الماء (على فكرة لهذا سُمِّيَت سفينة)، وتشقّ عباب البحر بهدوء وسلام، وكأنّها لؤلؤة تتهادى على أنغام الموج.

بقينا على هذه الحالة لعدد من الأيّام والليالي. سارت بنا السفينة من بحر إلى بحر، وطاب لنا السفر من جزيرة إلى جزيرة ومن مدينة إلى مدينة، إلى أن جاء يوم خرجت علينا الريح، وانقلب وجه البحر. تذكرون كيف وَصَفتُه لكم يعجّ عجًّا في السفرة الماضية؟ هكذا وجدنا أنفسنا فجأة في البحر العجّاج المتلاطم بالأمواج. فرمى الريّس مراسي السفينة، وأوقفها في وسط البحر حتّى لا نغرق. صرنا نصلّي، وندعو الله ونتضرّع إليه لينجّينا. وبينما نحن في بلبلة وفزع، عصفت بنا ريح شديدة مزّقت أشرعة السفينة وقطّعتها قطعة قطعة. فغرق الركّاب وحمولاتهم وكلّ ما معهم من متاع وأموال. وغرقت أنا من جملة من غرق.

لا أخفي عليكم، خفت في بداية الأمر! هذه رهبة البحر! لكنّي تذكّرت تجاربي البحريّة السابقة. وتعلّمت منها. وقرّرت أن أنقذ نفسي وغيري. عِمتُ على وجه الماء إلى أن لمحت مجموعة من الركّاب غير بعيدين عنّي. كانوا مثلي يصارعون الموج. سبحت إليهم. وبنصيحتي،

توقّفنا عن السباحة وأرخينا أجسامنا في الماء وعِمنا في البحر نصف نهار إلى أن يسّر الله لنا قطعة خشب من ألواح السفينة فركبناها مجتمعين. وصرنا نرفس بأرجلنا في البحر مثل المجاذيف.

بقينا راكبين على لوح الخشب ليوم وليلة. وساعدتنا الأمواج والريح إلى أن عبرنا وسط البحر واقتربنا من البرّ. وصباح اليوم الثاني، ثارت علينا الريح، وهاج البحر وقوي الموج فرمانا على جزيرة. كيف أصف لكم حالتنا؟ كنّا مثل الموتى من شدّة السهر والتعب والبرد والجوع والعطش والخوف!

نصحت رفاقي بأن نبقى مجتمعين، ومشينا في جوانب الجزيرة نفتّش عن شيء نسدّ به رمقنا. فوجدنا فيها النبات الكثير. أكلنا وبتنا ليلتنا على شطّ الجزيرة. وفي الصباح قمنا نفتّش على مكان آخر آمن يحمينا من البرد وأشياء أخرى أعظم وأخطر (مرّ ببالي طائر الرُخّ والنسر والكركدنّ، والحيّات والقرود وغيرها! كيف أنسى؟) مشينا في الجزيرة يمينًا وشمالًا فلاحت لنا عمارة عن بعد. سرنا نحوها. بتردّد! (تصوّرت حينها قصر العملاق الوحش! ولكن ما كان أمامنا خيار آخر.) سِرنا نحو العمارة إلى أن وَقَفنا على بابها. وإذا بعدد من الرجال العراة يخرجون من ذلك الباب. قبضوا علينا ونحن واقفين مذهولين! ما حكونا! (ولا كلمة!) وأخذونا عند ملكهم.

أمَرَنا الملك بالجلوس، فقعدنا. وجلبوا لنا شيئًا للأكل. التفتّ إلى الطعام فما عرفت ما هو. بعمري ما شفت مثله. قَرَّفَني منظره فأكلت منه القليل. وهذا ما أنقذني. أمّا رفاقي فغطسوا بالصحن وصاروا

يأكلون مثل المجانين. وكلّما أكلوا من ذلك الطعام كلّما زاد نهمهم وذهلت عقولهم. ثمّ أحضروا لهم زيت جوز الهند (يسمّونه دهن النارجيل) فسقوهم منه ودهنوهم به. لمّا شرب أصحابي من هذا الزيت زاغت عيونهم وصاروا يأكلون أكثر ... وأكثر ... حتّى تغيّرت أحوالهم وما عدت أعرفهم. احترت في أمرهم. وبقدر ما تأسّفت عليهم، صرت أخاف على نفسي منهم، ومن أولئك الرجال العراة الذين كانوا يطعمونهم. ورحت أتأمّلهم بحذر وفزع عظيم.

بقيت مدّة أراقبهم، عن بعد، وعن قرب. فوجدت أنّهم قوم فقراء ضعفاء لا حول لهم ولا قوّة. دينهم غريب، وملك مدينتهم غول لا يرحم. وتحت أمره، كانوا يتصيّدون كلّ من وصل إلى بلادهم أو صادفوه في الوادي والطرقات. فيجرّونه إلى الملك، ويطعمونه ويسقونه، أو بالأحرى يعلفونه من ذلك العلف الغريب إلى أن يكبر بطنه ويصغر عقله ويصير مثل الأبله. ولمّا يسمن ويزيد شحمه ولحمه، يذبحونه ويشوونه على النار ويقدّمونه لملكهم الغول. ولاحظت أيضًا أنّ جلساء الملك وأصحابه كانوا يأكلون من لحم الإنسان بلا شوي ولا طبخ!

وماذا عن العسكريّة؟ الرجال العراة؟ فكّرت. هل يأكلون من لحم صيدهم؟ أم أنّه محرّم عليهم أن يأكلوا ما تأكله طبقة الأمراء والأغنياء؟ هل يأكلون أصلًا؟ ألهذا هم عراة؟ ويعملون بدون صوت ولا حياة؟ حزنت عليهم وعلى أصحابي الذين وقعوا في فخّهم.

صرت لا آكل ولا أشرب (إلّا القليل القليل). ومع حزني وخوفي، رحت أفكّر بطريقة تنقذ رفاقي. لكنّي تأخّرت! انشغلت بحالي فنسيت أن أحذّرهم ممّا تخوّفت منه (فازداد عتبي على نفسي). بعد مدّة، كبرت أجسادهم وطارت عقولهم وما عادوا يعرفون ما يفعلونه ولا ما يُفعَل بهم. سلّم العسكريّة العراة رفاقي لراعي ماشية صار يخرج بهم كلّ يوم ويرعاهم في الجزيرة مثل البهائم. وأنا؟ لا تسألوني عن حالي! نشّف دمي. ضعف جسمي من الهمّ والخوف والجوع. ويبس لحمي على عظمي. وصرت أروح وأجيء مثل التايه المعتوه (طار عقلي من التفكير! كيف أخلص من هذه العلقة؟) ولمّا شافوني على هذه الحالة، ضعيف وهزيل وما منّي أمل، تركوني وحدي وما عادوا اهتمّوا بي.

وفي يوم، خرجت أتمشّى في الجزيرة، وبعدت عن حبسي. وقع نظري على رجل واقف في مكان مرتفع قرب البحر. اقتربت منه. فإذا هو الراعي الذي تسلّم أصحابي ليرعاهم وكان معه قطيع كبير غيرهم. فلمّا رآني ولاحظ أنّني بكامل عقلي، أشار إليّ بيده وسمعته من بعيد يقول: "ارجع إلى الخلف وامشِ في الطريق التي على يمينك فتصل إلى الطريق السلطانيّة الرئيسيّة." ما صدّقت أذنيّ. أهذا صوت بشريّ؟ رجعت إلى الوراء وأخذت الطريق على يميني كما أشار عليّ الراعي، فسرت فيها. وصرت ساعة أجري من الخوف، وساعة أمشي على مهلي حتّى ارتحت. وبقيت أركض وأمشي ... أركض وأمشي في الطريق التي

دلّني عليها ذلك الراعي الطيّب حتّى اختفيت عن عيونه. أم أنّي أنا ما عدت أراه؟ المهمّ أنّي ابتعدت عن أرض الغول وعسكر الغول.

غابت الشمس وأقبل الظلام فقعدت لأرتاح قليلًا. حاولت أن أنام فما قدرت من شدّة الخوف والجوع والعطش. لمّا انتصف الليل، قمت ومشيت في الجزيرة إلى أن طلع النهار. تعبان ونعسان وجوعان وعطشان! صرت أتمشّى وآكل من الحشيش والنبات في الجزيرة حتّى شبعت. بقيت على هذه الحالة سبعة أيّام بلياليها، كنت طوالها أبحث عن نقطة ضوء، أو نجمة تدلّني على طريق الخلاص. وصباح اليوم الثامن، وأنا أتمشّى نعسان ويأسان، رأيت من بعيد هيئة شبح آدميّ. فسرت إليه، ووصلت عنده بعد غروب الشمس. وَقَفتُ. حدّقت فيه وقلبي يرتعش من الخوف. السبب؟ ما قاسيته لحدّ الآن ليس بقليل! مرعب! والرجل ما كان وحده.

قوّيت قلبي وقرّبت. كان الرجل وأصحابه يجمعون حبّ الفلفل. لمّا رأوني، تركوا شغلهم وأسرعوا إليّ وأحاطوا بي من كلّ جانب وهم يسألون: "من أنت؟ من أين جئت؟ كيف وصلت إلى هذه الأرض؟"

ولمّا لاحظوا أنّي رجل مسكين، وتأكّدوا من ضعفي، سألوني: "ما لك؟ لماذا ترجُف؟ لا تَخَف خبّرنا."

فأخبرتهم من أنا، وبكلّ ما جرى معي من يوم تركت بغداد لحدّ هذه اللحظة. تعجّبوا من قصّتي. وما صدّقوا كيف نجوت من أرض الغول. قالوا لي: "ولكن كيف خلصت من جزيرة السودان، وهم خلق كثيرون ويأكلون الناس؟"

فقلت لهم: "لا، لا، ملكهم هو الغول! وعساكره يخافون منه ويرضخون لتسلّطه. وفي الجزيرة ناس طيّبون، مثل الراعي الذي دلّني على طريق الخلاص. وبفضله وصلت لعندكم."

زاد استغرابهم. بعضهم هزّ برأسه. "عندهم ملك؟ ما سمعنا من قبل عن هذا الملك الغول!" قال أحدهم.

وقال آخر: "أكيد! لأنّ من أخبرنا من قبل عن هذه الجزيرة، نَسِيَ الملك، وحَطَّ كلّ الحقّ على الشعب المسكين!"

نظر شغّيلة الفلفل إلى بعضهم البعض. هنّأوني بالسلامة، وأعطوني من زوّادتهم، فأكلت وشربت وارتحت. ولمّا خلصوا من شغلهم نزّلوني معهم في المركب، وأخذوني إلى ملك جزيرتهم.

رحّب الملك بي وأكرمني (طبعًا بعد أن تعجّب من قصّتي هو وكلّ من كان في مجلسه). شكرته، وخرجت أتفرّج في مدينته. وجدتها عامرة بالناس والمال والأسواق والبضايع والبيّاعين والمشترين. فَرِحتُ بوصولي إلى هذه المدينة وارتاح بالي. استأنست بأهلها وصرت عندهم، وعند ملكهم وكلّ حاشيته، معزّزًا مكرّمًا. وبعد أن أقمت فيها مدّة، لاحظت أنّ أهلها، الأكابر والناس العاديّين، كلّهم يركبون الخيول من غير سروج. فتعجّبت. وزاد عجبي عندما تحدّثت مع الملك وسألني: "وكيف يكون السرج؟ بعمرنا لا شفناه ولا ركبنا عليه ولا حتّى سمعنا عنه!" فشرحت له أنّ ركوب الجياد على السرج يوفّر الراحة للراكب ويزيد قوّته. واستأذنته لأصنع له سرجًا يليق به. وهكذا، أحضرت الخشب، ورحت عند نجّار شاطر، وعلّمته صنع السرج. ولبّست

السرج بالصوف اللبّاد والجلد. وبعدها علّمت الحدّاد كيف يدقّ الرِكاب ويبيّضه. وزيّنت السرج بالحرير وشددته على حصان من أجود الخيول. علّقت فيه الركاب واللجام وقدّمته للملك.

ما توقّعت ردّة فعل الملك. فقد أعجبه السرج وفرح به وأعطاني مقابله المال الكثير. وأصبحت أوّل صانع للسروج في المدينة. الذي حصل، أنّ وزير الملك لمّا عاين السرج، طلب منّي أن أعمل له واحدًا مثله. ففعلت. وصار أكابر الدولة وأصحاب المناصب يطلبون السروج منّي (وسمّوني السرّاج!) فعَلَّمتُ الصنعة للنجّار والحدّاد وصرنا نعمل السروج والرِكابات ونبيعها. وَفَّرَت لي صنعتي المال الكثير والمنزلة العالية عند الملك وجماعته وعند أكابر البلد والمسؤولين في الدولة. وازدادت محبّة أهل المدينة لي. فازداد ارتياحي وسروري. وفي يوم، صارحني الملك: "اسمع يا سندباد، أنت اليوم واحد منّا وعزيز علينا. لا نتحمّل أن تفارقنا أو تترك مدينتنا. لي طلب أريدك أن تطيعني فيه."

جاوبته فورًا: "أنا بأمرك وخدمتك يا مولاي. أنا لا أنسى فضلك وجميلك عليّ، ولا يمكن أن أرفض طلبك مهما كان."

قلت هذا ويدي على قلبي! ماذا يكون هذا الطلب؟ ماذا يريد الملك منّي؟ فتبسّم وقال: "أريد أن أزوّجك عندنا، زوجة مليحة ظريفة، غنيّة، وذات حسب ونسب. فتستوطن عندنا وأسكّنك في قصري."

لمّا سمعت كلام الملك سكتّ. استحيت منه. وما جاوبت. فاستغرب وسألني: "لمَ لا تردّ يا ولدي؟"

كيف أردّ؟ هل أقول إنّي تفاجأت، وما توقّعت هذا الطلب، ولا هذا العرض؟ طبعًا يشرّفني أن أكون من مواطنيه. ولكن الزواج؟ هذه مسألة أخرى. ففي كلّ سفراتي لحدّ الآن، ما واجهتني الأنثى (إلّا إذا استثنينا مغامراتي مع أنثى العملاق الوحش وحيّة المغارة!) لا! لا! ولكن هذه أنثى أخرى ... لكنّك لا تعرف لا أصلها ولا فصلها! "هي امرأة من عائلة شريفة. صدّقني! إنّها صاحبة مال وجمال وأملاك وعقارات. لمَ تتردّد يا ولدي؟"

صحّاني صوت الملك من دهشتي. وأعادني إلى واقعي. فقلت: "الأمر أمرك يا ملك الزمان!" وبالساعة ذاتها أحضر القاضي والشهود وزوّجني. وما سألني أحد عن أهلي وبيتي في بلادي!

أحبّتني امرأتي ... حبًّا عظيمًا. بهذه السرعة؟ وأنا أحببتها. بقدر حبّها؟ ... لا أدري ... المهمّ أنّي أحببتها. فهي امرأة رائعة. بنت حلوة ومهضومة وذكيّة، وزوجة صالحة متفانية تستحقّ كلّ المحبّة والإخلاص. وما زاد من سعادتنا أنّ الملك أعطاني البيت الكبير الذي وعدني به، وأعطاني معه الخدم والحشم، ووضع في خدمتي بعض العسكريّة وخدّام الدولة. فارتحت بزواجي، وانبسطت، ونسيت ما قاسيته في سفرتي من التعب والمشقّة. وعشت مع زوجتي في وفاق تامّ ومحبّة مدّة من الزمن، حتّى أنّي فكّرت أن آخذها معي إذا سافرت إلى بلادي. لكنّ القدر تدخّل ولعب لعبته!

في يوم، ماتت زوجة جاري وصاحبي. فدخلت إليه لأعزّيه وآخذ بخاطره. فوجدته في أسوأ حال: كان ينوح ويبكي، ويلطم وجهه، ويندب حظّه.

حاولت تعزيته فقلت له: "العوض بسلامتك! لا تحزن على زوجتك! الله يرحمها، ويطوّل عمرك! ويرزقك زوجة صالحة مثلها وأحسن منها!"

فشهق وزاد نحيبه وقال وهو يَتَنَتَّق (ويَتَنَتَّأ): "كـ كـ كيف ... يعو ... يعوّض ... كيف يعوّضني الله ... بسـ ... بسـ ... بالسلامة، وأنا بق ... بق ... بقي من عم ... عم ... عمري بقي من عمري يوم وا ... وا ... واحد. بقي من عمري يوم واحد؟"

حاولت تهدئته والتخفيف عنه فقلت: "ما لك يا أخي؟ كبّر عقلك ولا تُفَوِّل عروحك بالموت. ما شاء الله! بعدك شابّ وصحّتك بألف خير!"

عندها هزّني بكتفي وصرخ في وجهي: "اِصحَ يا صاحبي واسمعني! اليوم يدفنون زوجتي ويدفنونني معها في القبر. هذه عاداتنا! إذا ماتت المرأة يدفنون معها زوجها بالحياة. وإذا مات الرجل يدفنون معه زوجته بالحياة حتّى لا يتلذّذ أحدهما بالحياة بعد الفراق."

قعدت على طرّاحة أفكّر فيما قاله صاحبي. ما هذه العادة السيّئة؟ ما هذا الظلم؟ أفهم لزوم الحبّ والتفاني بين الزوجين وهما على قيد الحياة. ولكن أن يصل التفاني لحدّ الموت؟ ومعًا؟ وبينما أنا غارق في

أفكاري (نسيت مأساة صاحبي)، حضر أهل المدينة لتعزيته. جهّزوا المرأة الميّتة. وضعوها في التابوت. حملوها ومعهم زوجها وخرجوا من المدينة. وصلوا إلى مكان قرب الجبل على البحر. وهناك فتحوا القبر (وهو عبارة عن بير مغطّى بحجر كبير) ورموا المرأة الميّتة فيه. ربطوا الرجل بحبل وأنزلوه في البير وأنزلوا معه وعاء ماء للشرب وسبعة أرغفة من الخبز. سحبوا الحبل. غطّوا البير بالحجر الكبير. وانصرفوا. تركوا صاحبي الحيّ مع زوجته الميّتة في القبر.

ما صدّقت عينيّ! دفنوه وهو حيّ! والله هذا الموت أصعب، وأعظم، قلت لحالي. بقيت مدّة أفكّر بهذه المسألة وما استوعبتها. جئت عند الملك وحدّثته. فقال: "هذه عادات بلادنا. إذا مات الرجل ندفن معه زوجته وإذا ماتت المرأة ندفن معها زوجها حتّى لا نفرّق بينهما لا في الحياة ولا في الممات!"

قلت: "يا سيّدي، أفهم أنّ هذه العادة لا تفرّق بين الرجل والمرأة. ولكن، ألا تعتقد أنّ المساواة بينهما لازمة في الحياة، ولنتركها بعد الموت لمشيئة الله؟ وأفهم كذلك أنّ التفاني بين الزوجين قد يدفعهما أحيانًا للموت والتضحية بالذات لتحيا الذات الأخرى. لكنّ الموت في هذه الحالة يكون بالاختيار. أمّا عندما نفرض الموت، وندفن الرجل والمرأة بالحياة، فأين حقّهما بالاختيار؟"

قلت هذا وخفّضت نظري خوفًا من ردّة فعل الملك. فلا أدري ماذا أصابني كي أتفوّه بمثل هذه التفاهات: مساواة! ... حقّ! ... من أين جئت بهذه الأفكار؟

"والله هذه عادات بلادنا. ورثناها عن أجدادنا! وسنحافظ عليها إلى الأبد!"

انتشلني صوت الملك من تساؤلاتي. ومن دون وعي قلت: "وإذا ماتت الملكة، هل سيُدفن مولاي الملك معها حيًّا؟"

نظر الملك إليّ نظرة فيها ألف معنى ومعنى. هل تخطّيت حدودي؟ أم فقدت عقلي فما عدت أعرف ما أقوله؟ انتظرت حتّى أسمع جوابه. لكنّه بقي صامتًا.

ولمّا خفّ غضبه (أو هكذا تهيّأ لي)، سألته (بصوت مبحوح بالكاد يسمع): "وهل تنطبق هذه العادة على رجل غريب مثلي يا سيّدي؟" قال: "نعم. إذا ماتت زوجته ندفنه معها بالحياة!" انقطع نَفَسي. ودارت بي الأرض. أم أنّ رأسي ما عاد يحملني؟ مهزوم ... استأذنت من الملك ورحت إلى البيت.

بقيت مدّة وأنا مثل المعتوه. ذُهِلَ عقلي من التفكير. وانشقّت مرارتي من الحزن والغمّ. خفت أن تموت زوجتي قبلي فيدفنونني معها وأنا حيّ. سلّيت نفسي وقلت: لعلّي أموت أنا قبلها. ولكن! هذا يعني أنّ زوجتي هي التي ستُدفن بالحياة. هذا ظلم! فأنا أكبر منها سنًّا، وبالتالي عرضة للموت الطبيعيّ قبلها. وأنا أحبّها ولا أريدها أن تُحرَم من العيش بقيّة عمرها ولو بدون رفقتي! فكّرت أن أتركها وأرحل! لكنّي أحبّها! فلماذا أحرم نفسي من متعة الحياة معها؟ ومن يضمن الأعمار؟ فكّرت طويلًا. وما وجدت الحلّ لهذه المعضلة إلّا في أن أتلهّى

عنها في أمور مُفرِحة، وأن أحبّ امرأتي وأُسعِدها وأعتني بها حتّى الله يطوّل عمرها وعمري.

أما قلت لكم إنّ القدر لعب لعبته! مضت علينا أيّام حلوة عشت فيها أنا وزوجتي حياة العشّاق. وبدأت تذبل. هل أرهقها العشق؟ رحت أداريها. لأنّي عشقتها؟ أم لأنّي خفت أن يأخذنا الموت؟ وجعني قلبي عليها. لقد زوّجوها منّي وأنا أكبرها بعشرين سنة! فإذا متّ قبلها ستدفن معي وهي لم تبلغ بعد العشرين من عمرها! يا ويلي من الظلم! رحت أداريها. فهذا حقّها بالحياة. ولأنّي عشقتها وعشقت حياتي معها.

ما همّ كم داريتها. ذبلت امرأتي في يدي. وماتت. اجتمع الناس يعزّونني ويعزّون أهلها فيها. (وجاءني الملك. ليودّعني؟ أو ليشمت بي!) غسلوها وألبسوها أفخر الثياب والمصاغ والجواهر. وضعوها في التابوت. حملوها. جرّوني معهم وراحوا إلى المقبرة. رفعوا الحجر عن البير وألقوا جثّة زوجتي فيه. لا تتصوّروا بأيّ حالة كنت! كان الناس يودّعونني وأنا أصرخ فيهم: "يا جماعة اسمعوني! أنا رجل غريب. لا دخل لي بعاداتكم. ما ذنبي أنا؟ بماذا آذيتكم؟ لا تريدونني بينكم؟ اتركوني أرجع إلى أهلي وبلدي." لا كانوا يسمعون ولا يحزنون! أمسكوني وربطوني بالغصب. وأنزلوني في البير ومعي وعاء ماء للشرب وسبعة أرغفة من الخبز. رموا عليّ الحبل (ما كنت أرضى أفكّ نفسي بنفسي). غطّوا البير بالحجر الكبير. راحوا. وتركوني في القبر.

مغارة الموت تعبق بالرائحة المنتنة. وظلمة القبر أرهب من ظلام الليل في مغارة الحيّات! هناك كانت الحيّة تحنّ على بيضها، تتنفّس، وتأمل بالحياة. وهنا؟ وجدت نفسي أعوم فوق بحر من الجماجم والعظام البشريّة. كيف أقفز فوقها؟ كيف أعدو؟ كيف أنام عليها ولا أسمع أنينها؟ أين أروح؟ أين أهرب؟ أين نجمتي تضيء عتمتي؟ أين امرأتي تطيّب خاطري؟ تَرَكَتني ورَحَلَت! نَسيتُ. امرأتي سبب جنوني!

نتّفت شعري. مزّقت ثيابي. ندبت حالي. ولمت نفسي: أستاهل كلّ ما جرى لي. ما شبعت سفرات ومغامرات؟ كلّ مرّة أذوق فيها طعم الموت، ولا أتوب! متى أتعلّم أنّه ما كلّ مرّة تسلم الجرّة؟ لا حول ولا قوّة إلّا بالله! أيّ شيء بلاني بالزواج في هذه المدينة؟ ليتني غرقت في البحر، أو أكلتني طيور الجبال، أو شواني الملك الغول! كان أحسن لي من هذه المغارة المشؤومة.

وأنا أندب حظّي، لمعت بخاطري فكرة. بارقة أمل! (الآن فهمت معناها!) تذكّرت عيّاش. هو رجل من بلادي وعينا عليه يدبدب على ركبه. تقول الحكاية إنّه مرض وقبروه وطلع من القبر على ركبه ورجع عاش. فسمّوه عيّاش. كيف خرج من القبر؟

بعد أن لمت حالي (قليلًا)، وندبت حظّي (كثيرًا)، قمت من حلاوة الروح ومشيت في جوانب المغارة. هي مغارة واسعة، بطونها كبيرة وخالية، وفي أرضها أموات كثيرة وعظام رميمة من قديم الزمان. وجدت زاوية بعيدة عن الموتى والجثث الطريّة. نظّفتها، ملّستها، وصرت أنام فيها. بقيت في مغارة الموت لا أعرف ليلي من نهاري.

وصرت لا آكل إلّا القليل. خفت أن يخلص ما عندي من الخبز والماء، وأموت من الجوع والعطش. بقيت مدّة (ما عدت أعدّ الأيّام!) لا آكل حتّى يقطّعني الجوع، ولا أشرب حتّى ينشّف ريقي. وكنت كلّما احترق قلبي من الجوع وألهبني العطش، أتحسّس ما عندي من الخبز فآكل الفتافيت، وأشرب نقطة ماء إلى أن قلّ زادي وكاد وعاء الماء أن ينشف. عدت أندب حظّي (من جديد!): ما هذا الحظّ التعيس! أنا كلّما أخرج من بلوى أقع في بلوى أكبر منها. كيف أطلع من هذه المغارة المشؤومة؟ كيف أخرج من قبري؟ وتذكّرت عيّاش. هل مرّ بما أمرّ به؟ هل نام على عظام الموتى؟ هل تمنّى عيّاش الموت ليخلص من الموت؟ كيف خرج من القبر؟

وأنا في عزّ تأمّلاتي (ما عاد عندي حيل إلّا للتأمّل)، تزحزحت صخرة البير عن مكانها ونزل منها النور، وضوّى زاويتي. خير إن شاء الله! قلت بقلبي. وإذا بالقوم وقفوا على رأس البير ونزّلوا جثّة ميّت وامرأة بالحياة وهي تبكي وتصيح. ونزّلوا معها الكثير من الزاد والماء. غطّوا البير بالحجر الكبير ... وراحوا!

نظرت إلى المرأة من بعيد. ثيابها فاخرة ثقيلة، وعليها الكثير من الحليّ والمجوهرات (أكيد غنيّة!) كانت تصرّخ وتشمّط شعرها وتخبّط عصدرها! وصارت تقول كلمات ما فهمت منها ولا كلمة! تركت زاويتي وقرّبت منها. ورحت أنظر إليها دون أن تراني أو أُعلِن عن وجودي.

وقفت أراقبها وأنا أفكّر: حرام! بعدها صغيرة! ما عندهم قلب؟ أين إنسانيّتهم؟ كيف تسمح لهم بدفن شبابهم وشابّاتهم بالحياة؟

فقط للمحافظة على التقاليد والعادات! فلتسقط هذه العادات. فليسقط الظلم.

ولكن يا عزيزي، فكّر بنفسك أنت هالساعة! وبحقّك الإنسانيّ أنت! قلت لحالي.

صحيح، خلّيني بمحنتي! كيف أزمط بجلدي؟ أقتلها؟ حرام! أقتل امرأة! أقتل إنسانة ضعيفة لأبقى أنا على الحياة؟ لا حول ولا قوّة إلّا بالله.

عندك خيار آخر؟ تفضّل!

وأنا أحاور نفسي وأتساءل عن خياراتي، سقطت المرأة على جثّة زوجها وغابت عن الوعي. ماتت! (أو هكذا تهيّأ لي؟) مرّت لحظات وأنا أفكّر (ما حسبت الوقت). المرأة لا تتحرّك. لقد سهّلت مهمّتي! أخذت عظمة كبيرة، طويلة عريضة، وضربتها فيها على رأسها! ضربة واحدة كانت كافية. أخذت زوّادتها من الأكل والشرب. تركتها لمصيرها. ورحت.

أقمت في زاويتي في مغارة الموت مدّة من الزمان. كنت كلّما دفنوا اثنين، أقضي على الجسد الحيّ، وآخذ الزاد آكله وأشربه لأبقى على الحياة.

يعني مثل قبّاض الأرواح؟ تتساءلون!

لا يا أصحابي! لا! ما كنت أمسّ الروح! وعلى أيّ حال، ما نَزِلَت إلى مغارة الموت يومًا روحٌ حيّة!

وماذا عنّي أنا؟

تذكرون ما قلته لكم إنّي بعد أن أنزلوني في البير، قمت ومشيت من حلاوة الروح؟ كيف أنظر إلى رفاقي يرمونني في الجبّ وتبقى معي روحي؟

إذًا، كيف نفذت بحلاوة روحي؟

لأنّ من رموني لا هم رفاقي ولا أهلي! والله أعلم!

في يوم، وأنا نايم في زاويتي، سمعت خشخشة وصوت حركة سريعة في جانب المغارة. انفشلت. قمت وحملت سلاحي (قصبة رجل ميّت صارت رفيقتي ووسيلتي للعيش). مشيت ناحية الصوت. فلمحت شبح حيوان وحشيّ يدبّ على الأرض. اقتربت منه فهرب. ارتعبت! لحظة، وتبعته إلى صدر المغارة فظهر لي ضوء شحيح من فتحة صغيرة مثل النجمة. صار الضوء يروح ويجي ... ويجي ويروح. وكلّما اقتربت من فتحة النور يظهر الضوء ويتّسع. اقتربت أكثر، ودقّقت النظر فتحقّقت أنّ فتحة النور ثقب في المغارة ينفذ إلى الخلاء. وما وراء الفتحة مكان فارغ إلّا من الضوء. فكّرت: لا بدّ أنّ هذا المكان الخالي ثُمّ آخر للبير مثل الفم الذي أنزلوني منه.

بعد ساعة من التفكير والتردّد، مشيت ناحية النور، وصرت كلّما تقدّمت كلّما صار الضوء أوضح وأسطع. هيه آآآه! شهقت! لا تتصوّروا كم كانت دهشتي عظيمة عندما بَيَّنَ لي طريق ضيّق في ظهر الجبل. لمّا دقّقت فيه، تأكّدت أنّه نَقْب في الجبل، نَقَبَته الوحوش لتنفذ منه إلى داخل المغارة، فتأكل الموتى حتّى تشبع وتطلع من

الطريق نفسها لتعود إلى الجبل. ارتاح قلبي. وأحسست أنّ هذا النقب هو طريقي إلى الحياة.

تتبّعت خطوات الحيوان خطوة خطوة حتّى طلعت من طريق النقب. ووجدت نفسي على جانب البحر فوق جبل عظيم فاصل بين البحرين وبين الجزيرة والمدينة، ولا يمكن لأحد الوصول إليه. فرحت كثيرًا وشكرت الله على خروجي إلى الضوء والهواء النقيّ. ارتحت قليلًا حتّى استعدت أنفاسي وقوي قلبي. ورحت أنفّذ المرحلة الثانية من خطّة الإنقاذ.

عدت بخطواتي على طريق النقب ورجعت إلى مغارة الموت. حملت كلّ ما جمعته ووفّرته من الخبز والماء ونقلته إلى الجبل. ثمّ عدت إلى المغارة وأخذت من ثياب الموتى وغيّرت ثيابي. وأخذت ممّا وجدت على الجثث الكثير من العقود والجواهر وقلائد اللؤلؤ والمصاغ من الفضّة والذهب المرصّع بالأحجار الثمينة. وربطت ثياب الموتى بثيابي وطلعت إلى ظهر الجبل. وقفت على جانب البحر أنتظر. وصرت كلّ يوم أنزل المغارة وأطلّع منها زاد المدفونين الجدد – الذكور أو الإناث – وثيابهم وما دُفِن معهم ممّا غلا ثمنه وخفّ وزنه. وأعود إلى جانب البحر أنتظر الفرج.

بقيت على هذه الحالة مدّة طويلة. وفي يوم، وأنا جالس كعادتي أفكّر بمصيري، إذا بمركب كبير يجتاز عرض البحر. أخذت من ثياب الموتى ثوبًا أبيض وربطته في عكّاز وركضت على شاطئ البحر ورحت أصرّخ وألوّح باتجاه المركب. التفت بعض الركّاب ناحيتي، وصاروا

يلوّحون لي وينادون عليّ. نزل عدد منهم في زورق وتوجّهوا صوب الشاطئ حيث كنت أنتظر. لمّا اقتربوا منّي سألوني عن حالي وكيف وصلت إلى هذا المكان. فقلت لهم إنّي رجل تاجر غرق المركب الذي كنت فيه فطلعت على لوح ومعي حوائجي، وباجتهادي وفطنتي وصلت إلى هذا المكان بعد تعب شديد. أخذوني في الزورق وحملوا معي كلّ ما أخذته من المغارة بعد أن ربطته بالثياب والأكفان. طلعنا المركب وأخذوني عند الريّس.

استغرب رئيس المركب وجودي على الجبل. وسألني: "أمرك غريب يا رجل! كيف وصلت إلى هذا الجبل الشامخ خلف المدينة؟ طول عمري أسافر في هذا البحر وأجتاز هذا الجبل، وبعمري ما لمحت عليه غير الوحوش والطيور؟" وكما فعلت مع ركّاب الزورق الذين أنقذوني، أخبرت الريّس نصف حكايتي، بأنّي تاجر وأنّ القماش والثياب التي أحملها هي من بضائعي التي أنقذتها من الغرق. ما أخبرته، ولا أخبرت الركّاب، بما جرى لي في المدينة ولا في مغارة الموت. خفت أن يكون على المركب أحد من سكّان المدينة فيفتضح أمري.

بعد أن أكلت وشربت وارتحت، أخذت لصاحب المركب هديّة من مالي الكثير لقاء معروفه بإنقاذي. ما قَبِلَ هديّتي وقال لي: "نحن لا نأخذ هديّة من أحد. إذا رأينا الغريق نحمله معنا ونطعمه ونسقيه ونكسوه. ولمّا نصل إلى برّ السلامة نعطيه هديّة ونعمل معه المعروف لوجه الله!"

شفت؟ بعد في ناس أوادم بهالدنيا! قلت لحالي. دعوت له بطول العمر، وقعدت في المركب أنتظر. يدي على قلبي، أحلم بالعودة. وأرجو النجاة.

انطلقت سفرة العودة بهدوء وسلام. لم يعكّر صفائي الداخليّ خلالها إلّا تفكيري بدفني مع زوجتي وبعيشتي في مغارة الموت. كنت كلّما تذكّرت قعودي على عظام الموتى يطير عقلي. ما عاد إليّ كامل صوابي إلّا بعد أن وصلنا بالسلامة إلى مدينة البصرة. أقمت فيها عدّة أيّام كنت بغاية الفرح. ومنها توجّهت إلى بغداد. كيف أصف لكم سعادتي برجوعي إلى بلادي ومدينتي وبيتي وأهلي وأصحابي؟ كيف أصف لكم متعتي بالكنوز التي جلبتها من مغارة الموت، حمّلتها وخزّنتها في ثيابي وبين أضلعي؟ طبعًا استمتعت بثروتي. صرت آكل وأشرب وألهو وأطرب. تصدّقت وكسوت الأرامل والأيتام وهديت الأصحاب. وما نسيت الأحباب (وناول السندباد الحمّال كمشة ذهب). لكنّي نسيت قساوة القدر. واشتاقت نفسي للمخاطرة. وخطر ببالي السفر ...

قالت شهرزاد:

عندها، وَعَدَ السندباد البحريّ أصحابه، ومنهم السندباد البرّيّ، بأن يروي حكاية سفرته الخامسة في ليلة الغد، إن شاء الله. وتوقّف عن الحكي.

وجاء الصباح. وسكتت شهرزاد عن الكلام المباح ...

حكاية السفرة الخامسة

قالت شهرزاد:

بلغني أيّها الملك السعيد أنّ السندباد الحمّال رجع إلى بيته غير مصدّق ما جرى للسندباد البحريّ في سفرته الرابعة. معقول! كيف يدفنون الناس بالحياة؟ كيف عاش السندباد في المقبرة بين العظام وجماجم البشر؟ كيف تحمّل رؤية الرجال والنساء تذبل وتموت من الحزن والخوف والجوع والعطش؟ كيف أنقذ حياته؟ وكيف خرج من قبره وهو في كامل عقله؟ كلّها أسئلة طرحها السندباد البرّيّ على نفسه في طريق عودته من قصر السندباد البحريّ. ما نام تلك الليلة. وفي الصباح، تردّد في العودة إلى بيت السندباد. أهو خائف من صاحبه الجديد؟ ولمَ لا يخاف ... طالما أنّ السندباد البحريّ يعشق الحياة والمغامرة بالحياة ليبقى!

لكنّ السندباد البرّيّ لا يطيق صبرًا. يتشوّق لمعرفة مغامرات السندباد البحريّ في سفرته الخامسة ... والسادسة ... وفي كلّ سفراته. ولا سبيل لمعرفة كامل الحكاية إلّا من السندباد البحريّ نفسه. وهكذا حمل السندباد البرّيّ حاله وراح لعنده. صبّح عليه وقال (بدون مقدّمات): "لا تقل لي طوّل بالك! والله يا أخي ما قدرت أنام ولا لحظة. اشفق عليّ! الله يخلّيك ويطوّل عمرك. كمّل لي

حكايتك. خبّرني!" ابتسم السندباد البحريّ وقال: "لا بأس يا صاحبي. لا بأس. انتظر. الحكاية تصير أحلى بحضور باقي الأصحاب." طيّب السندباد البحريّ خاطر صاحبه، وسقاه من شرابه الطيّب (بطعم جديد ما ذاقه من قبل). وانتظر وإيّاه إلى أن حضر بقيّة أصحابه. وجاء المساء، فأكلوا وشربوا وانبسطوا. وبدأ بالحكي، فقال:

بعد عودتي إلى بلادي، غرقت في اللهو والطرب (مثل عادتي بعد كلّ عودة). ومن شدّة فرحي بالمكاسب والأرباح التي حقّقتها في سفرتي الرابعة، نسيت كلّ ما لاقيته وما جرى لي في تلك السفرة. نسيت كلّ المخاطر، حتّى أنّي نسيت عيشتي في المقابر. وخطر ببالي أن أسافر وأغامر وأتفرّج في بلاد الناس والجزائر.

نعم يا أصحابي. نعم. نسيت أنّي تبت. فالبحر صار رفيقي. وكما قال ذلك الشاعر من بلادي: "غدت رحلاتي إدمانًا ... (أم كانت هربًا من ظلّي؟) لا أدري!" المهمّ أنّي بعد أن عزمت على السفر، اشتريت بضاعة نفيسة تناسب البحر، ونزلت في الزورق من مدينة بغداد إلى مدينة البصرة. وهناك، تمشّيت على الساحل حتّى وجدت سفينة مليحة كبيرة وعالية (من طابقين)، أعجبتني فاشتريتها. كانت عدّة السفينة جديدة. فاستأجرت لها الريّس والبحريّة ومجموعة من العمّال والخدم والنظّارة لمراقبة سير العمل على ظهرها. وبعد أن نزّلت حمولي، جاءني عدد من التجّار، فنزّلوا بضائعهم في سفينتي ودفعوا لي الأجرة. وأبحرنا ونحن في غاية الفرح وقد استبشرنا بالسلامة والربح الكثير.

بقينا مسافرين من جزيرة إلى جزيرة ومن بحر إلى بحر، ونحن نتفرّج في الجزر والبلدان ونطلع إليها نبيع فيها ونشتري. وفي يوم، وصلنا إلى جزيرة كبيرة خالية من السكّان، وفيها قبّة بيضاء كبيرة عظيمة. طلعت على ظهر السفينة أتفرّج عليها. يا إلهي! هذه بيضة رُخّ! شهقت. (لا تسألوني كيف عرفت! كيف أنسى؟) وقفت للحظة مذهولًا لا أصدّق عينيّ. وعادت إلى ذاكرتي مغامراتي مع طائر الرُخّ في إحدى سفراتي. تذكرون؟

يا ربّي! ما العمل؟ تساءلت. كيف نرسو على هذه الجزيرة؟ كيف نطلع إليها وفيها طائر الرُخّ؟ ماذا تخبّئ لنا هذه البيضة؟ وأنا منشغل بأفكاري، ما انتبهت أنّ الركّاب طلعوا يتفرّجون عليها. ضربوها بالحجارة فانكسرت. نزل منها ماء كثير وبيّن فرخ الرُخّ داخلها. فسحبوه منها. طلّعوه وذبحوه وأخذوا لحمه. كلّ هذا وأنا أنظر إليهم! أراهم ولا أراهم! وكأنّ منظر البيضة وحده أعادني إلى أيّام من الخوف والرعب عشتها مع طائر الرُخّ وأنا معلّق في مخالبه وأرتعد في ظلّه! راح عن بالي أن أحذّر الركّاب من الخطر الذي ينتظرهم. ولا هم أخبروني بما ينوون فعله.

أفقت من دهشتي على صوت واحد من الركّاب يناديني: "تعال يا سيّدي، تعال وتفرّج على هذه البيضة التي حسبناها قبّة." انتفضت. عندها فقط لاحظت أنّ الركّاب كانوا يضربون البيضة (أم أنّها بيضة ثانية؟) فصحت عليهم (وأنا ألوّح لهم محذّرًا): "وقّفوا! وقّفوا! يا جماعة! اسمعوا! انتهوا! لا تكسّروا البيضة فيطلع طير الرُخّ ويكسّر

مركبنا ويهلكنا!" لا سمعوا كلامي ولا عبّروني (بصراحة، كأنّهم ما اعتبروا أنّي موجود أصلًا!) ضجيج الضرب والقتل صمّ آذانهم فما سمعوا ندائي. ووهج الغلبة، والنصر المزعوم، أعمى بصيرتهم فلا رأوا تلويحي ولا تحذيري.

وبينما هم يضربون البيضة ويمرحون ويضحكون (مثل السكرانين والمحشّشين)، إذا بالشمس قد غابت عنّا. وغيّمت الدنيا وأظلم الجوّ. فورًا، رفعت رأسي إلى السماء وتَأَكَّدَت مخاوفي. أجنحة الرُخّ هي التي خيّمت علينا وحجبت عنّا ضوء الشمس. الذي حصل، أنّه لمّا جاء طائر الرُخّ ورأى أنّ البيضة انكسرت، صاح صيحة عظيمة فجاءت رفيقته. ومعًا، راحا يحومان على المركب ويصرخان علينا بصوت أقوى من صوت الرعد. وسط صراخ الرُخّ الذي يشبه زعيق الصواعق (وكأنّ أكثر من صاعقة صَعَقَتنا! عن جدّ!) المهمّ، وسط زعيق الرُخّ، صرت أصرّخ وأصيح على الريّس والبحريّة: "بسرعة يا ريّس بسرعة، ادفعوا المركب! ادفشوه! بسرعة، قبلما نهلك!" كنت أصرّخ وأخبّط بيديّ وأرفس حائط المركب برجليّ. كان كلّ همّي أن نطلب السلامة فنخرج من أرض الرُخّ ونخلص منه. خشيت انتقامه! فما فعلناه أمر رهيب، ولن يمرّ بسلام.

أسرع الريّس وحلّ حبال المركب وطلع التجّار وتركنا الجزيرة. لكنّ الرُخّ لم يتركنا! لمّا رآنا سرنا في البحر، غاب عنّا ساعة من الزمن. أسرعنا في السير بالمركب وخرجنا من منطقة الخطر. لكنّ الرُخّ ورفيقته، وكما توقّعت، عادا إلينا للغاية نفسها، ولكن بتصميم أشدّ

وعناد، وبوسيلة أكبر هذه المرّة. طارا فوقنا وتَبِعانا وفي مخالب كلّ منهما صخرة كبيرة هائلة. ألقى ذكر الرُخّ الصخرة التي كانت معه، فجذب الريّس المركب وقد أخطأه سقوط الصخرة بشيء بسيط فنزلت في البحر. قام بنا المركب وقعد من هول وقوع الصخرة، وقد رأينا قعر البحر من قوّتها. وما كدنا ننجو من صخرة الرُخّ حتّى ألقت رفيقته الصخرة التي كانت معها. كانت صخرة الأنثى أصغر، لكنّها أقوى وأقسى! نزلت علينا كالقدر (أهو قلب الأمّ؟ أم حزن الأمّ؟) وكما قدّرت، أصابت الصخرة مؤخّرة السفينة فكسرتها وطيّرت الدفّة وقطّعتها. تكسّرت السفينة وتشقّقت ألف شققة وشققة، وغرق جميع من كان عليها في البحر!

شال بي البحر وحطّ. فوصلت حدّ الموت! وصرت أحاول النجاة من حلاوة الروح. وأصلّي! (يا حبيبتي يا أمّي!) فبعث لي الله بلوح من ألواح السفينة، تمسّكت به وركبته وصرت أجذّف برجليّ. ساعدني الموج والريح على السباحة (وأكيد الحظّ!) فسبحت باتّجاه البرّ (أو ما يشبه الجزيرة) دون أن تغفل عيني عن السفينة التي غرقت في قلب البحر. وصلت الشاطئ وأنا على آخر نَفَس، ألهث من التعب والقهر. وَدَّعتُ حطام سفينتي. ألقيت بجسمي على الرمل. أغمضت عينيّ. وأجهشت بالبكاء.

لا تسخروا من بكائي يا أصحابي! بكيت! نعم! بكيت على حالي وعلى رفاقي. وبكيت على رزقي ومالي. وبكيت على سفينتي التي أحببتها وتعلّقت بها وكأنّها رفيقة عمري.

طلعت على الجزيرة وأنا مثل الميّت من التعب والجوع والعطش والقهر. انطرحت على شاطئ البحر ساعة من الزمن. وقد أراحني البكاء وخفّف عنّي فانفرجت نفسي واطمأنّ قلبي. قمت ومشيت في الجزيرة. سبحان الخالق! كأنّها روضة من رياض الجنّة: أشجار يانعة وأنهار دافقة وطيور مغرّدة. ووجدت في الجزيرة الكثير من أنواع الأزهار وأشجار الفاكهة، فأكلت من الفواكه حتّى شبعت وشربت من الأنهار حتّى ارتويت. ورحت أتمشّى وأحمد الله على هذه النعمة (وطبعًا على سلامتي أوّلًا وآخرًا!)

قضيت طول النهار أتمشّى في الجزيرة فلا التقيت بأحد ولا سمعت صوت أحد. خفت. ولمّا حلّ المساء وأقبل الليل، صرت مثل القتيل من الإرهاق والخوف. قعدت تحت شجرة عالية وغفوت. نمت حتّى الصباح. ثمّ قمت ومشيت بين الأشجار حتّى وصلت إلى ساقية على عين جارية. وعند تلك الساقية، لمحت طيف إنسان قاعد على الأرض. حدّقت فيه من بعيد فإذا هو رجل كبير بالعمر مؤزّر بورق الأشجار. فقلت في نفسي: من يكون هذا الشيخ؟ ولماذا يلفّ جسمه بورق الشجر؟ لعلّه من غرقى السفينة وطلع مثلي إلى هذه الجزيرة. اقتربت منه وسلّمت عليه (بصوت عالٍ وقبل أن أصل لعنده)، فردّ السلام بالإشارة (بدون حكي). قلت له: "يا شيخ، ما سبب قعودك في هذا المكان؟" فحرّك رأسه وتأسّف وأشار لي بيده أن أحمله على رقبتي وأنقله إلى حافّة الساقية الثانية. استغربت! مَن هذا الرجل؟ ولماذا يحكي معي بالإشارة والوَمى؟ هل أجيب طلبه؟ تردّدت. ومع

ذلك، قلت لحالي: يالله! أَعمَل معه هذه الخدمة لعلّ ثوابه يحلّ لي. وتذكّرت قول أمّي: "اِعمَل المعروف وزِتّ البحر يا ولدي! بلكي الله يزيّت سراجك وينوّر طريقك!" عندها تقدّمت إليه وحملته على أكتافي وجئت به إلى المكان الذي أشار لي إليه. وقلت له: "انزل على مهلك يا شيخ! انتبه!"

يا ضيعان المليح! بدل أن ينزل عن أكتافي، لفّ رجليه على رقبتي وشدّ عليها بقوّة. انوجعت. وصرخت: "آآآخ ... ما لك يا رجل! انزل!" ما نزل! نظرت إلى رجليه على صدري، مثل جلد الجاموس! فزعت منه. وحاولت أن أرميه من فوق أكتافي، فشدّ على رقبتي برجليه وخنقني بهما. صرت أصرّخ (بصوت مبحوح ومن حلاوة الروح): "آآآخ ... أنت تخنقني ... ما قادر أتنفّس ... اتركني ... وقّف ... لا تخنقني!" لكنّه ما تركني ... وبقي يشدّ ويشدّ. فانقطع نَفَسي. اِسوَدَّت الدنيا في عينيّ ... ووقعت على الأرض مغشيًّا عليّ مثل الميّت.

لا أعرف كم مضى عليّ من الوقت وأنا غائب عن الوعي. كلّ ما أعرفه أنّي وعيت على حالي ووجهي على الأرض وحمل ثقيل على ظهري. وباللحظة ذاتها، رفع الشيخ الجاموس ساقيه وضربني على ظهري وبين أكتافي، فأوجعني. شعرت بألم شديد في صدري وفي رأسي. وقفت به وهو راكب على رقبتي. فأشار لي بيده أن أدخل بين الأشجار إلى أطيب الفواكه. تعبت منه. ولكن يا ربّي، ماذا أعمل؟ كنت إذا خالفته يضربني برجليه (ضربات أشدّ من ضرب السياط)، ويشدّ الخناق على رقبتي (كأنّي بغل والنير في عنقي!)

صار الشيخ الجاموس يشير لي بيده إلى كلّ مكان يريده وأنا أمشي به إليه. وإن تأخّرت أو تمهّلت، يضربني بسوط رجليه ويشدّ النير على عنقي، وكأنّي أسير عنده أو عبد من عبيده. بقينا على هذا الوضع مدّة، وقد دخلنا في قلب الجزيرة بين الأشجار الكثيفة. وصار يبول على أكتافي ولا ينزل لا في الليل ولا في النهار. وإذا أراد النوم يلفّ رجليه على رقبتي وينام لوقت قصير (دقائق فقط). ثمّ يقوم ويضربني، فأقوم بسرعة وأحمله وأمشي به. ما كان بإمكاني أن أخالفه من شدّة ما أقاسي منه. وخفت أن يخنقني ويقطع نَفَسي فأموت تحت رجليه. (وتذكّرت حكّام بلادي، وتذكّرت أهل بلادي الذين "يدفعون الخراج ويأكلون الكرباج،" كما قال مؤرّخ عربيّ أصيل!)

تعبت من الشيخ الجاموس ومن ظلمه (وثقل دمه!) ولمت نفسي لأنّي شفقت عليه وحملته. وقلت لحالي: هذا ثمن المعروف؟ ما هكذا علّمتني أمّي! كانت تقول لي: "اعمل المعروف وكثّر منه وحتّى لو زيّت البحر!" وكانت تقول: "لا تنتظر مقابل لمعروفك!" وتستشهد بمثل دارج بلهجة بلادنا: "اعمل مليح وارميه بالبحر! إن ما بان عند البالق ببان عند الخالق." تراها قصدت "اعمل المعروف وزتّ بالبحر" يعني أَرميه بالبحر؟ آه ... ما عدت أعرف. المهمّ، أنا لا أفهم ماذا فعلت لهذا الشيخ لأستحقّ ظلمه!

ماذا فعلت معه لأستاهل كلّ هذه القساوة؟ كلّ ما فعلته أنّي قدّمت العون لإنسان عجوز بحاجة للمساعدة.

والهيئة ما طلع إنسان! الآن فهمت المثل الدارج: "اعمل المعروف مع كلب ولا تعمله مع ابن آدم!"

ولكن، معقول! ما بقي في الدنيا أوادام؟ أكيد هذا من سوء حظّي أنا! أنا عملت الخير فانقلب عليّ شرّ الدنيا! إذن، والله ما عدت أعمل الخير مع أحد طول عمري!

لا تيأس يا رجل! هل كلّ الناس مثل بعضها؟

طبعًا لا! ولكن، كيف أخلص من هذا الجاموس الكابوس؟

وأنا غارق في أفكاري، أفاقني ضربه على ظهري فانوجعت. وصرت أتمنّى الموت في كلّ ساعة وكلّ دقيقة من كثرة التعب والشقاء.

بقيت على تلك الحالة مدّة من الزمن. وفي يوم، حملته إلى مكان في الجزيرة فيه يقطين كثير. أخذت يقطينة كبيرة ويابسة، فتحت رأسها وفرّغتها، ومشيت إلى شجرة عنب قريبة فملأتها من عناقيدها، وسددت رأسها ووضعتها في الشمس، وتركتها عدّة أيّام حتّى تحوّل العنب إلى خمر. صرت كلّ يوم أشرب من الخمر ليساعدني على تحمّل الشيخ الملعون. الخمرة! نعم يا أصحابي! لجأت إلى شيطان الخمرة أستعين به على معاناتي من ذلك الشيخ الشيطان. ونجحت مراودتي الخمرة. فصرت كلّما سكرت منها تقوى همّتي. وفي يوم، رآني وأنا أشرب، فأشار لي بيده: ما هذا؟ فقلت له: "شيء مليح يقوّي القلب ويشرح الخاطر!" وخطرت ببالي فكرة ... أخذت أوّل جرعة والثانية والثالثة وهو يحاول أخذ اليقطينة من يدي. ثمّ ركضت به ورقصت بين الأشجار. وأصابتني نشوة السكر فرحت أصفّق وأغنّي.

لمّا رأى انشراحي، شدّ رجليه على رقبتي وأشار لي أن أناوله اليقطينة. خفت منه. فأعطيته إيّاها. شرب ما بقي فيها ورماها على الأرض.

نجحت الحيلة! انطرب الشيخ وصار ينهزّ على أكتافي. ثمّ سكر، بالأحرى غرق في السكر، وقد ارتخت جميع أعضائه وصار يتمايل ويتراقص فوق ظهري. فلمّا تأكّدت أنّه سكر وغاب عن الوجود، ومثلما نقول بالدارج "صار بدنيا غير دنيا،" مددت يديّ إلى رجليه وفككتهما عن رقبتي. ثمّ ملت به إلى الأرض فقعدت وألقيته عليها. لا تتصوّروا شعوري! ما صدّقت أنّي تخلّصت من حمل هذا الشيخ الثقيل وتحرّرت من نيره الغليظ. ولكن هل فعلًا خلصت منه؟ الحقيقة أنّي عندما شفته على الأرض بلا حركة، ظننت للحظة أنّه انتهى. لكنّ شخيره نبّهني! خفت أن يصحى من سكره ويؤذيني. فأخذت صخرة كبيرة من بين الأشجار وضربته على رأسه وهربت! قتلته؟ ممكن! لمّا ضربته، أطلقت ساقيّ للريح، وما توقّفت إلّا بعد أن تأكّدت أنّي بَعُدتُ ... ماذا أقول؟ ابتعدت عن ساحة المعركة؟

بعد أن ابتعدت، وقفت أتأمّل بما فعلته بالشيخ.

هل فعلًا خدعته ليشرب الخمرة؟

لا! هو الشيطان المخادع! أنا شربت الخمرة لأنسى ظلمه! وهو من طمعه، ولغاية في نفسه أراد أن يحرمني من وسيلتي للنسيان بعد أن حرمني من حريّتي ... أراد أن يسلبني واسطتي للبقاء.

هل قتلته؟ قتلت نفسًا بشريّة؟

ولكن هذا شيطان رهيب! ثمّ أنا رأيت الناس الأبرياء يُدفَنون في القبر ويموتون من القهر، فكيف لا أتشفّى من موت هذا الشيخ الجاموس وهو غدّار ظالم استغلّ طيبتي وما توانى لحظة عن استعبادي وإذلالي؟ وأنا طلبت منه وترجّيته أن يشفق عليّ ويرحمني، لكنّه لا سمع ولا تنازل ... فهو يستحقّ الموت ولا يستاهل حتّى رحمة الله عليه!

وسط تأمّلاتي وشجوني، مشيت في الجزيرة حتّى ارتاح خاطري. وجئت إلى المكان الذي كنت فيه على شاطئ البحر. بقيت هناك مدّة من الزمن آكل من ثمار الجزيرة وأشرب من أنهارها وأنا أنتظر، وأترقّب أن يمرّ عليّ مركب يعيدني إلى بلادي.

وفي يوم، وبينما كنت أفكّر فيما جرى لي وأحكي مع حالي: يا ترى يا سندباد، هل يبقيك الله ويعيدك بالسلامة إلى بلادك وبيتك وأهلك وأصحابك؟ والله اشتقت! وإذا بمركب قد أقبل في عرض البحر ورسى على الجزيرة، وطلع منه الركّاب. أمشي إليهم؟ تردّدت. في الحقيقة، أنا ما عدت أثق بأحد. ماذا لو كانوا من قراصنة البحر؟ لكنّ الركّاب لمّا شافوني، أسرعوا نحوي وتجمّعوا حولي وسألوني عن حالي وسبب وصولي وقعودي في تلك الجزيرة. ارتحت لهم وأخبرتهم بكلّ ما جرى لي. فتعجّبوا وقالوا لي: "إنّ هذا الرجل اسمه شيخ البحر، وما حمله أحد وخلص منه إلّا أنت. فالحمد لله على سلامتك، وألف شكر لتخليصك المسافرين منه." ثمّ جاؤوا لي بطعام فأكلت، وأعطوني بعض الثياب فلبستها. وأخذوني معهم في المركب.

سرنا في البحر عدّة أيّام ولياٍل فرمتنا المقادير على مدينة عالية، بيوتها مطلّة على البحر. وأخبرني الركّاب أنّها مدينة القرود. وقصّتها، أنّه لما يجيء الليل يخرج السكّان منها وينزلون في زوارق ومراكب ويبيتون في البحر خوفًا من أن تنزل القرود عليهم من الجبال. طلعت أتفرّج في المدينة. وفي هذه الأثناء، سافر المركب بدون علمي. فندمت على طلوعي منه! ولمت نفسي: بكامل عقلك أنت يا رجل! كيف تركت المركب وما تمسّكت فيه بأسنانك؟ وكيف طلعت إلى المدينة بعدما عرفت قصّتها الغريبة؟ ما علّمتك التجارب؟

وتذكّرت ما جرى لي لمّا سافر المركب بدوني أكثر من مرّة. وتذكّرت مغامراتي مع القرود في إحدى سفراتي السابقة. خفت وحزنت وقعدت أبكي. وأنا أندب حظّي، تقدّم إليّ رجل من سكّان المدينة وقال لي: "يا سيّدي، كأنّك غريب في هذه الديار!" فأخبرته أنّي فعلًا غريب ومسكين أيضًا ... وأنّ المركب سافر بدوني. فقال: "قُم وامشِ معنا ننزل بالزورق. إذا بَقيتَ في المدينة بالليل تقتلك القرود." قمت بدون تردّد ونزلت معهم (ما كان عندي خيار آخر ولا وقت للتفكير!) وصاروا يدفعون الزورق حتّى أبعدوه عن شاطئ البحر مقدار ميل. وباتوا تلك الليلة وأنا معهم.

وفي الصباح، رجعوا بالزورق إلى المدينة وراح كلّ واحد منهم إلى شغله. كانت هذه عادتهم كلّ ليلة، ومن تخلّف منهم وبقي في المدينة بالليل، تجيء القرود وتقضي عليه. وفي النهار، ترجع القرود إلى الجبال ثمّ تعود في المساء إلى المدينة. وهكذا كلّ يوم. وسمعت أيضًا أنّ هذه

المدينة تقع في أقصى بلاد السودان. تذكرون جزيرة السودان وملكها الغول؟ وكيف أنقذني منه ذلك الراعي الطيّب؟ لا تتعجّبوا إذًا مما سأخبركم إيّاه الآن! فمرّة أخرى في بلاد السودان، سألتقي بناس طيّبين يساعدونني وينقذونني من الضياع.

الذي حصل أنّه عندما طلعت أنا والجماعة من الزورق إلى المدينة، جاء صوبي رجل منهم (غير الذي حكى معي يوم وصولي) وسألني: "يبدو أنّك غريب في هذه البلاد. عندك صنعة تشتغل فيها؟" فجاوبته: "لا والله يا أخي، ما عندي صنعة ولا أعرف عمل شي. أنا تاجر، وكان عندي سفينة ملكي تكسّرت بالبحر وغرقت فيها كلّ بضائعي، وما بقي لي إلّا رحمة الله والفرج!" نظر الرجل إليّ وهزّ برأسه. ثمّ قام وأحضر لي مخلاة من القطن وقال لي: "خُذ هذه المخلاة واملأها من حجارة الزَلَط، هي حجارة ملساء وصغيرة تجدها على الشاطئ، واخرج مع أهل المدينة وأنا أوصيهم بك، واعمل مثلهم لعلّك تشتغل بشيء ينفعك ويعينك على العودة إلى بلادك." ثمّ أخذني إلى الشاطئ فنقّيت الحجارة وملأت المخلاة. ماذا سأعمل بهذه الحجارة؟ أتصيّد عصافير؟ سعادين؟ وأنا أتساءل، صدف خروج جماعة من المدينة فأرفقني صاحبي بهم وأوصاهم بي وقال لهم: "هذا رجل غريب، خذوه معكم للوادي، وعلّموه اللقط، ولكم الأجر والثواب." يعلّموني اللقط؟ لقط ماذا؟

رحّب الرجال بي ومشينا وكلّ منا يحمل مخلاة مليانة بالحصى الزلط (يقال له أيضًا البحص). وصلنا إلى الوادي وهو مكان واسع

فيه قرود كثيرة وأشجار عالية لا يمكن الطلوع عليها. لمّا رأتنا القرود هربت وطلعت على الشجر. صار الرجال يرجمون القرود بالحجارة التي معهم والقرود تقطّع ثمار الشجر وترميها على الرجال. وأنا أراقب. آه ... عرفت ... عرفت! هذا جوز الهند! أعجبتني فكرة لقط الجوز! فلمّا رأيت ما عمله الرفاق، اخترت شجرة كبيرة عليها قرود كثيرة. وصرت أرجم هذه القرود فتقطّع من الجوز وترميني به فأجمعه كما يفعل الرفاق. فما فرغت مخلاتي من الحجارة حتّى كنت قد حوّشت الكثير من الجوز، ربّما أكثر من أيّ واحد من رفاقي. فحملته معهم وعدنا إلى المدينة. جئت إلى الرجل الذي شغّلني وأعطيته ما جمعته. فانبسط وأعطاني أجرتي، وأعطاني معها بعض الجوز وقال لي: "خذه وبعه وانتفع بثمنه." ثمّ أعطاني مفتاح مكان في داره لأضع فيه ما يبقى معي من الجوز فأبيعه وأحتفظ بثمنه لعلّي أجمع ما يساعدني على السفر. شكرته على فضله وعملت بنصيحته. (ولا تنسوا أنّي من خلقتي تاجر. وما كنت بحاجة لمن يوصّيني!)

صرت كلّ يوم أروح إلى الشطّ وأملأ المخلاة وأنزل إلى وادي القردة. وكان رفاقي، من طيبتهم، يتوصّون بي ويدلّونني على الشجرة الكثيرة الثمر لأرجم القرود وألقّط الجوز، وأحوّشه مثلما نقول بلهجتنا. وبعد مدّة، جمّعت كمّيّة كبيرة من جوز الهند وبعتها واشتريت بثمنها أشياء كثيرة تعجبني. فصفا وقتي في المدينة وزاد حظّي. وفي يوم، وأنا واقف جنب البحر، رسى مركب على المينا. وصار التجّار يبيعون من بضائعهم ويشترون جوز الهند وغيره من

منتوجات المدينة. فجئت عند ربّ عملي، وأخبرته عن المركب وعن رغبتي بالرحيل. فوافق ودعا لي بالسلامة. ودّعته وشكرته على معروفه معي في وقت كنت في أمسّ الحاجة إلى المساعدة (وفي وقت كنت قد فقدت ثقتي بالناس بعد تجربتي مع شيخ البحر!) جئت عند صاحب المركب ودفعت له أجرة السفر. نزّلت ما كان معي من الجوز والأغراض التي جمّعتها في المدينة. وأبحرنا في ذلك اليوم.

بقينا سائرين من جزيرة إلى جزيرة ومن بحر إلى بحر. وكلّ جزيرة رسونا عليها كنت أبيع فيها من جوز الهند وأقايض. وقد عوّض الله عليّ بأكثر ممّا ضاع منّي (وأعاد لي ثقتي بالناس الطيّبين!) ومن الجزر التي مررنا عليها في طريق العودة، جزيرة غنيّة بالقرفة والفلفل. ومن طريف ما سمعته هناك، أنّ كلّ عنقود فلفل تظلّله من المطر ورقة كبيرة تنقلب وتنزل بجانبه عندما يتوقّف المطر. ومررنا أيضًا على جزيرة العسرات (كما سمعت اسمها بلسان سكّانها) حيث وجدنا العود القماريّ (يبدو أنّه يعرف بهذا الاسم نسبة إلى شعب القْمَر أو القَمَر أو القُمَر، والله أعلم!) وعلى مسيرة خمسة أيّام بعدها، مررنا بجزيرة غنيّة بالعود الصينيّ وهو أفضل من القماريّ. والملفت أنّ أهل الجزيرتين يختلفون عنّا في الهيئة وطريقة العيش؛ ولو أنّ ملامح أصحاب العود الصينيّ أكثر حدّة من أهل القماريّ. وهم أكثر منهم حبًّا للبذخ واللهو وشرب الخمر. كما أنّهم لا يعرفون الأذان ولا الصلاة.

في رحلة العودة، تاجرت وربحت. قايضت بجوز الهند، وأخذت الكثير من القرفة والفلفل والعود الصينيّ والقماريّ. وعندما جئنا إلى مغاص اللؤلؤ، أعطيت الغوّاصين بعض الجوز وقلت لهم: "غوصوا على نيّتي ونصيبي." فغاصوا في البحر. ولحظّي الطيّب، طلّعوا الكثير من اللؤلؤ الكبير الغالي. أعطيتهم حلوينة من العود وأخذت في المركب كلّ ما طلّعوه لي من اللؤلؤ.

وسار بنا المركب بهدوء وسلام إلى أن وصلنا إلى مدينة البصرة. ومنها توجّهت إلى مدينة بغداد ودخلت حارتي وجئت إلى بيتي.

كيف أصف لكم فرحتي برجوعي إلى بلادي ومدينتي وأهلي وأصحابي؟ كيف أصف لكم سعادتي بالثروة التي جمّعتها في هذه السفرة؟ على فكرة، قد تكون هذه من أكثر السفرات التي شعرت فيها بمتعة المقايضة والمتاجرة. وقد استعدت خلالها ثقتي بمهاراتي كتاجر، فعَوَّضتُ مالي الذي ضيّعته في البحر (وإن كنت ما نسيت خسارتي لسفينتي!)

استمتعت بثروتي. صرت آكل وأشرب وألهو وأطرب. تصدّقت وكسوت الأرامل والأيتام وهديت الأصحاب. وما نسيت الأحباب (وناول السندباد الحمّال كمشة ذهب). لكنّي نسيت مخاطر البحر. واشتاقت نفسي للمغامرة. وخطر ببالي السفر ...

قالت شهرزاد:

عندها، وَعَدَ السندباد البحريّ أصحابه، ومنهم السندباد البرّيّ، بأن يروي حكاية سفرته السادسة في ليلة الغد، إن شاء الله. وتوقّف عن الحكي.

وجاء الصباح. وسكتت شهرزاد عن الكلام المباح ...

ما الذي يبرق
في قلب العين؟

حكاية السفرة السادسة

قالت شهرزاد:

بلغني أيّها الملك السعيد أنّ السندباد الحمّال ترك قصر السندباد البحريّ وهو حيران وفي باله ألف سؤال وسؤال. ما سبب حيرته واضطرابه؟ أهو مبسوط؟ متفائل؟ حزين؟ خائف؟ كيف يصف مشاعره بعد سماع حكاية السفرة الخامسة؟

هل يصدّق حكايات السندباد؟ هل سفراته حقيقة؟ أم أنّها من نسج خياله؟ هل فعلًا سافر في البحر؟ وكيف يعقل أن يخونه البحر في كلّ سفرة وكلّ مرّة يعود إليه؟ ولكن هل خانه البحر؟ ففي سفرته الخامسة، كان البحر رفيقه، خلاصَه من غضب الرُخّ، شراعه للتحرّر من شيخ البحر، وملجأه من القرود! وإذا نظرنا إلى المسألة من منظار آخر، نقول إنّ هذه السفرة ما كانت سيّئة، وربّما تكون من أمتع سفراته! صحيح أنّ سفينته تكسّرت، ولكنّ شققة واحدة من قلبها ردّت له الحياة. (ألهذا قال إنّها رفيقة عمره؟) وصحيح أنّ شيخ البحر ركبه، لكنّ حمله وعّاه على الهمّ الراكب على رقاب الفقراء والمعثّرين في بلاد العالم. ولا ننسى أنّ تراشقه الحجارة والجوز مع القرود أغناه عن حياة الفقر والقلّة، وردّ له ثقته بالناس الأوادم، وردّه إلى أهله.

ألهذا اشتاق للسفر من جديد؟

بهذه التساؤلات غرق السندباد البرّيّ بعد عودته من عند السندباد البحريّ. فكّر فيها طول الليل. وما وجد لها الجواب. وفي الصباح، ما تردّد، ولا أيّ لحظة، في العودة إلى بيت صاحبه. فلا أحد يمكن أن يجيبه عن تساؤلاته إلّا السندباد البحريّ نفسه. وهكذا راح لعنده. صبّح عليه وقال له: "والله يا أخي أنت حيّرتني! بعد كلّ الذي جرى لك تعود إلى السفر! ما هو سرّك؟ ماذا وراء هذا العشق للمغامرة ... والمقامرة بالحياة؟ اعذرني ... ولكن هذه مقامرة ... لا؟ عمَّ تبحث في سفراتك؟ هل وجدته في سفرتك السادسة؟ والله حيّرتني ... الله يخلّيك خبّرني وريّح بالي!" ابتسم السندباد البحريّ وقال له: "خفّف من حملك يا صاحبي. أنت دائمًا بصلتك محروقة! تفضّل. برّد حلقك بهذا الشراب. واقعد ننتظر باقي الأصحاب."

طيّب السندباد البحريّ خاطر صاحبه، وسقاه من شرابه الطيّب بطعم العود والقرفة والفلفل، وانتظر وإيّاه إلى أن حضر بقيّة أصحابه. وجاء المساء، فأكلوا وشربوا وانبسطوا. وبدأ بالحكي، فقال:

بعد عودتي من سفرتي الخامسة انغمست في الأكل والشرب والطرب. والتهيت عن همومي وهموم الناس حولي. وفي يوم وأنا قاعد وحدي على شاطئ دجلة، مشت صوبي جماعة من رفاقي التجّار وعليهم آثار السفر: تعب وعرق وثياب مجويّة ... ولكن، وجوههم كانت مشرقة تنبض بالحياة والصحّة والعافية. وكانوا يضحكون

ويمرحون ويتبادلون السلام مع الأهل والأصحاب الذين جاؤوا لملاقاتهم على الشطّ. لمّا شفتهم رقص قلبي. هلّلت وهنّأتهم بالسلامة. فرحتي بهم ذكّرتني بأيّام قدومي من السفر وفرحي بلقاء أهلي وأحبابي، وانشراحي برجوعي لبلادي. فاشتاقت نفسي إلى المغامرة في البحر والتجارة (تسمّونها مقامرة؟) وصرت أحلم بلحظات الفرح بالعودة واللقاء، فقرّرت السفر. ومثل كلّ مرّة، اشتريت بضائع فاخرة وغالية، وحمّلت حمولي ونزلت بالزورق من مدينة بغداد إلى مدينة البصرة. هناك، التقيت بعدد من رفاقي التجّار وأكابر البلد على مركب كبير. فنزّلت حمولي معهم في المركب وسرنا بالسلامة.

بقينا مسافرين من مكان إلى مكان ومن مدينة إلى مدينة ونحن نبيع ونشتري ونتفرّج على بلاد الناس. وقد طاب لنا السفر. فالبحر هادئ والربح وفير والعيشة هنيّة، إلى أن كان يوم وفيما كنت أحسب الأرباح التي كسبتها والغنائم التي جمّعتها، إذا برئيس المركب يطلع علينا فجأة. صاح صيحة عظيمة ورمى عمامته وصار يصرّخ ويلطم على وجهه وينتف لحيته، ووقع في بطن المركب من الغمّ والقهر. فاجتمعنا حوله وأمطرناه أسئلة:

"خير يا ريّس، لِمَ تخبط راسك بالأرض؟ ماذا حصل؟ إن شاء الله صحّتك مليحة والمركب بأحسن حال؟ طمّنا يا ريّس!"

رفع رأسه عن الأرض وجلّس قعدته: "كيف أطمّنكم؟ ومن أين يجيئنا الخير؟ من هذا الحظّ التعيس؟ أنا متأسّف يا جماعة، ما

عندي لكم أخبار حلوة. الظاهر أنّنا تهنا بالمركب وخرجنا من البحر الذي كنّا فيه ودخلنا ببحر لا نعرف طرقه."

"متأكّد أنت يا ريّس؟" سأله أحد البحريّة، "معقول، ما في طريق يوصّلنا بالسلامة لبرّ الأمان؟"

هزّ الريّس برأسه وبصوت مرتجف جاوبه: "يبدو أنّنا اقتربنا من جبل المغناطيس!"

"ماذا؟" صرخت بوجهه، "ماذا تقول يا ريّس؟ جبل المغناطيس الذي يحكي عنه البحّارة والتجّار العرب؟ متأكّد أنت؟"

ردّ الريّس دون أن يلتفت إليّ: "المتأكّد منه أنّه ما لنا خلاص إلّا إذا بعث لنا الله طريقة من عنده تنتشلنا من هذا البحر. وإلّا هلكنا كلّنا! فما بقي لنا وسيلة إلّا أن نصلّي ونطلب من الربّ ينجّينا من هذه الورطة."

وانهمرت الصلوات والدعوات من كلّ صوب: "يا ربّ استر! يا الله يا كريم يا عظيم. يا ستّار ويا مطوّل الأعمار. أَشفِق علينا وعلى عيالنا وخلّصنا."

اشتدّ الموج وتلاطم وتدافع. وصارت الأمواج تتقاذف المركب وتدفشه بقوّة باتّجاه الجبل العالي. تجمّعنا حول الريّس، البحريّة والركّاب والتجّار وأنا معهم، وعرضنا عليه: "ممكن نساعدك بشي يا ريّس؟ أيّ شي ... قلّ لنا ... كيف نحطّ أيدينا معك؟"

عندها قام الريّس على حيله، وصعد على الصاري (تنشّط أو خجل أمام إصرارنا؟ أم أنّ تشجيعنا أعاد له بعض الأمل؟) المهمّ،

حاول الريّس أن يحلّ قلوع المركب حتّى لا تتمزّق أشرعته بالريح. لكنّ الريح كانت أقوى وأسرع. ردّت المركب على مؤخّرته فانكسرت دفّته قرب الجبل. تجمّدنا في أرضنا مذهولين. نزل الريّس عن الصاري وهو يحوقل ويضرب كفًّا بكفّ ويبربر بكلمات غير مفهومة: "لا نقدر نمنع المقدور ... المقدّر كاين لا ينمحي ... المكتوب ما منه مهروب!" ثمّ حدّق فينا وقال: "خلص، وقعنا في المهلكة ... ما بقي لنا مخلّص ولا نجاة!"

ارتعبنا ... نظرنا إلى بعضنا غير مصدّقين ... بكينا ... وما لحقنا نودّع بعضنا حتّى مال المركب فينا. صرخنا. وصار المركب يروح فينا إلى الشمال واليمين ... يمين وشمال ... يمين ... شمال ... واصطدم بالجبل العالي. تكسّر المركب وتشقّف ألف شقفة وشقفة، وتفرّقت ألواحه. وغرقت كلّ البضائع. ووقع كلّ الركّاب، البحريّة والريّس والتجّار والخدم والحشم، كلّهم وقعوا في البحر. منهم من غرق ومنهم من تمسّك بالجبل وطلع عليه.

كنت أنا من جملة من طلع على الجبل (صار عندي خبرة!) وإذا هو جزيرة كبيرة فيها كثير من المراكب المكسّرة (ما يؤكّد فكرة الجبل المغناطيس). وعلى الشاطئ أرزاق كثيرة لا شكّ أنّها من حوائج الركّاب الذين تكسّرت مراكبهم وغرقوا في البحر. وأكثر ما يحيّر الفكر في هذه الجزيرة هو ما يلقيه البحر على جوانبها من متاع وأشياء كثيرة يمكن أن نستفيد منها ونتمتّع بها: ثياب ... ومصاغ ... ونقود ذهب وفضّة ... شيء يأخذ العقل! عندما طلع الركّاب على الجبل وانتشروا في الجزيرة، ذُهِلَت عقولهم من كثرة ما رأوه من الأمتعة والأغراض وكلّ

ما يُنتَفَع به في هذه الدنيا. صاروا مثل المجانين ... يلقّطون الأغراض ويرمونها ليلقّطوا غيرها أحلى منها وأغلى ... وهكذا أمضوا الساعات الأولى قفز ونطّ من محلّ لمحلّ ... أمّا أنا فرُحتُ أفتّش عن مخرج.

وقفت أتأمّل ذلك الجبل النحس. ثمّ مشيت في الجزيرة إلى أن وصلت إلى عين ماء. أخذت بيدي قطرة وذقتها. الماء بارد وعذب. شربت منه حتّى ارتويت. ولاحقت بعينيّ الماء الجاري تحت الجبل من الجانب الأوّل لآخر الجانب الثاني. تتبّعي لمجرى الماء شغلني لفترة قصيرة عدت بعدها إلى قلب العين البرّاق. ما الذي يبرق في أرض العين؟ سألت حالي. الحصى الزلط؟ بَحلَقتُ. معقول! جواهر وأحجار كريمة وياقوت ولؤلؤ! شيء لا يتصوّره العقل. ويبدو أنّ مجاري المياه في تلك الغوطة، وغيرها من غيطان هذه الجزيرة، كلّها ملآنة من هذه الجواهر والمعادن واليواقيت واللآلئ الكبار الملوكيّة (ما رأيت مثلها من قبل إلّا عند أصحابي الملوك)، وأصناف كثيرة غيرها من الجواهر والأحجار الكريمة لا أعرف اسمها. شيء يأخذ العقل! مثل السحر!

هذه الجزيرة السحريّة غنيّة بكنوز أخرى. ففيها أصناف كثيرة من أعلى العود الصينيّ والعود القماريّ. وفيها أيضًا، جنب عين الماء، عين نابعة من صنف العنبر الخام. وهو يسيل مثل الشمع من حرّ الشمس ويتمدّد على شاطئ البحر، فتطلع الحيوانات البحريّة وتبلعه وتنزل به في البحر، فيمّحي في بطونها. ثمّ تقذفه من أفواهها في البحر فيجمد على وجه الماء. عندها يتغيّر لونه وشكله فتقذفه

الأمواج إلى جانب البحر، فيأخذه السبّاحون والتجّار الذين يعرفونه فيبيعونه. وأمّا العنبر الخام الخالص (الذي ينجو من البلع) فإنّه يسيل على جانب عين الماء ويتجمّد بأرضه. وعندما تطلع عليه الشمس يسيح وتصبح رائحة ذلك الوادي كلّه مثل المسك. وعندما تغيب الشمس يجمد. والملفت أنّ مكان العنبر الخام لا يقدر أحد على دخوله ولا حتّى المشي في الطريق إليه، لأنّ تلك الجزيرة السحريّة محاطة بالجبل الذي لا يقدر أحد على الصعود إليه (إلّا من تكسّر مركبه وعلق على الجبل النحس مثل حكايتي!)

بقينا ندور في هذه الجزيرة السحريّة ونتفرّج على كنوزها، وكنّا محيّرين في أمرنا وخائفين. فمع كلّ ما فيها من الأرزاق، ما وجدنا فيها ما يكفي للأكل! لا ثمار ولا خضار ولا أطيار. وكنّا قد جمعنا القليل من الزاد لمّا طلعنا عليها وصرنا نوفّر ونأكل منه في كلّ يوم أو يومين أكلة واحدة. خفنا أن يفرغ الزاد منّا فنموت من الجوع والقهر. ووقع المقدّر! بدأ الزاد يشحّ، والبطون تفرغ وتتوجّع، والأجساد تضعف، والرفاق يموتون الواحد بعد الآخر. وصرنا كلّما مات واحد منّا، نغسله ونكفّنه في القماش الذي يقذفه البحر على الجزيرة.

مات منّا عدد كبير وما بقي إلّا جماعة قليلة. ضعفنا من قلّة الأكل ومن جوّ البحر والحزن والخوف. (لا تتصوّروا شعور الخوف الذي كان يجتاحني كلّما رحل واحد منّا!) أقمنا مدّة قصيرة قبل أن مات جميع رفاقي، واحد بعد الآخر. وبقيت وحدي ومعي زاد قليل.

فبكيت على نفسي وقلت: يا ليتني متّ قبل رفاقي. عالأقلّ كانوا غسّلوني ودفنوني.

أقمت وحدي في تلك الجزيرة المسحورة (أكيد هي مسحورة!) مدّة من الزمن (نسيت حساب الوقت!) وفي يوم، وبعد أن قلّ زادي (وما بقي معي إلّا أظافري أعضّها)، أحسست بطعم اليأس، فقمت من حلاوة الروح وحفرت لنفسي حفرة عميقة وقلت لحالي: إذا ضعفت وشعرت أنّ الموت قد أتاني، أرقد في هذا القبر فأموت فيه، وتبقى الريح تسفّ عليّ الرمل فتغطّيني وتُدَفّيني. وبعد أن حفرت قبري بيدي، جاء وقت الملامة والندامة:

أنت قليل العقل يا سندباد! كيف تترك بلدك وأهلك بعد كلّ الذي صار معك في سفراتك؟ لو كانت سفرة واحدة كنّا فهمنا وقلنا صدفة! والسفرة الثانية، قلنا الرجل حابب يتعرّف عبلاد الناس ... والثالثة، قلنا حابب يجرّب ويختبر ... والرابعة؟ قلنا تاب ... والخامسة؟ والسادسة؟ ما هو سرّك يا سندباد؟ في كلّ سفرة من سفراتك قاسيت الأهوال وشفت الويل ... وما تعلّمت!

والله لا أعرف! أنا كلّ مرّة أنجو وأرجع بالسلامة أقول: خلص التوبة ما بقيت أعيدها. وكلّ مرّة أنسى أنّي تبت وأعود إلى البحر ... ما هو سرّي؟ أنا نفسي لا أفهم غرابة أمري. أنا لست بحاجة للمال، وعندي ثروة طائلة لا أقدر أن أفنيها، ولا حتّى أضيّع نصفها في باقي عمري. وعندي من الأملاك والأرزاق ما يكفيني وزيادة. فما الذي يشدّني إلى البحر؟

يعني أنت تغامر بمالك وحياتك بلا شي. ولكن هذه مقامرة!

لا يا أصحابي لا. لا تلوموني. هو البحر وقلب البحر! فوتوا جوّاته واسمعوا دقّاته ... تعشقوا عشقي لكلّ خفقة من خفقاته!

رغم عتبي على حالي (أو ربّما بسببه!)، ما فقدت الأمل بالنجاة. وأنا غرقان في عتابي ولومي خطرت ببالي فكرة: لا بدّ أنّ هذا النهر له أوّل وآخر، فإذا كان هذا أوّله، أين آخره؟ قد يكون له مخرج إلى العمار. في كلّ رحلاتي، كان الزورق يحملني، من العمران يأخذني، وإلى العمران يردّني. إذًا، المركب هو الخلاص.

المنقذ الوحيد لي هو في عمل فلك صغير يكفيني للقعود فيه، فأنزّله في هذا النهر وأسير به. فإن أوصلني إلى آخر النهر أخلص.

وإن ما وصلت؟

أموت في النهر أحسن من الموت في هذه الجزيرة المسحورة.

فكرة عظيمة! لماذا ما خطرت ببالك من قبل؟ قاعد تبكي على حظّك وتتحسّر على حالك! يالله. قُم. توكّل على الله. ابتدئ بالشغل.

وهكذا، قمت أدوّر مثل المجنون على أخشاب لبناء الزورق. فجمّعت الكثير من خشب العود الصينيّ والقماريّ وشددتها على جانب البحر بحبال من حبال المراكب المكسّرة. وجئت بألواح متساوية من ألواح المراكب ووضعتها في الأخشاب وشددتها بقوّة ومكّنتها. وعملت الزورق على عرض النهر أو أقلّ بقليل. وعملت له خشبتين على جنبيه مثل المجاذيف. ولمّا تأكّدت أنّه ماكن ومليح، جمّعت كمّيّة كبيرة من

المعادن والجواهر واللؤلؤ الملوكيّ الكبير، ومن العنبر الخام الخالص الطيّب الموجود في هذه الجزيرة السحريّة، وحمّلتها فيه. وأخذت معي كلّ الزاد الباقي (وهو قليل عكلّ حال)، ثمّ ألقيت الزورق في النهر. وتركت الجزيرة المسحورة.

كيف أصف لكم حالتي يا أصحابي؟ خائف؟ مرعوب؟ متردّد؟ أكيد، خفت في البداية، خصوصًا لمّا فكّرت فيما ينتظرني في آخر الجبل. لكنّي أقنعت نفسي بأنّ التفكير في هذه المرحلة ما عاد يفيدني، لأنّي إذا بقيت أفكّر فلن أتحرّك من مكاني. سلّمت أمري لله. وانطلقت.

سرت بالزورق في النهر. ودخلنا تحت الجبل، أنا والزورق والنهر (ثلاثتنا سويّة) إلى أن وصلنا إلى نقطة مظلمة ما عدت شفت فيها أيّ شيء. بدأ الجبل يضيق علينا، والنهر يضيق ومياهه تتدفّق وتدفع بالزورق بقوّة أكثر وأكثر ... وصار الزورق يميد بي إلى الشمال واليمين، ويضرب بجانبي النهر، وأنا أتموّج مع الزورق ومع أمواج النهر ورأسي يعلو ويضرب بسقف الجبل ويرجع ينخفض ويضرب بأرض الزورق. احترت كيف أخبّيه ... وصلنا لنقطة مسدودة لا رجوع عنها. وبدأت تراودني الأفكار السوداء ... وعدت ألوم حالي وأبكي: هذه نهايتي! ولكن لا ... أنهينا هذه المسألة ... لا تراجع ... ولا عودة ... مهما كان المصير فهو أحسن من انتظار الموت على الجزيرة المسحورة ... على الأقلّ تكون جرّبت! فلا مجال للملامة ولا للبكاء! تشجّع يا سندباد ... اصمد.

وطي سقف الجبل فانقلبت على وجهي وانطرحت في الزورق من ضيق النهر. صار الزورق مرّة ينزل على مهله ومرّة ينحدر بسرعة مفاجئة ويخبط بسقف الجبل ثمّ يهبط ليضرب قعر النهر ثمّ يعلو ويهبط من جديد.

غرق الزورق بظلمة الجبل، وصار النهر مرّة يتّسع ومرّة يضيق، وأنا غرقان وسط العتمة لا أعرف ليلي من نهاري، خايف وفزعان من لحظة الهلاك. بقيت على هذه الحالة لوقت (أحسست أنّه طويل جدًّا). تعبت. وغلبني الإرهاق والقهر فنعست. ألقيت رأسي على أرض الزورق، نمت على وجهي وغفوت. كم من الوقت؟ لا أعرف ... كلّ ما أعرفه أنّي صحوت فوجدت نفسي في الضوء ونور الشمس يبهر نظري. فتّحت عينيّ جيّدًا فوجدت نفسي في مكان واسع كثير الشجر، والزورق مربوط على جذع شجرة وحولي جماعة من الرجال (أظنّ أنّهم من الهنود أو الأحباش). لمّا شافوني وعيت، تقدّموا نحوي وحكوني بلسانهم فما فهمت ما يقولون.

ظننت أنّني في حلم. وكنت في هذا المنام في حالة لا توصف من الضيق والزعل والتعب والعجز عن الحركة، كأنّي مشلول. حاولت أن أحرّك أصابع يديّ ورجليّ، فما قدرت. لمّا كلّمني الرجال وما فهمت كلامهم وما جاوبتهم، تقدّم إليّ رجل منهم وقال لي بلسان عربيّ: "السلام عليكم يا أخي، من تكون أنت؟ ومن أين جئت إلى هذا المكان؟ وما سبب مجيئك؟ وكيف وصلت إلى هذه الغوطة؟" وشرح لي أنّهم أصحاب هذه الغيطان، جاؤوا لسقاية زرعهم وجنائنهم فوجدوني في

الزورق، فأمسكوه وربطوه وانتظروا حتّى أقوم من نومي على مهلي. لمّا سمعت كلامه وتأكّدت أنّي في اليقظة، قلت له: "أنا جوعان ... ميّت من الجوع ... بالله عليك يا سيّدي، جيء لي بشيء من الأكل وبعدها اسألني عمّا تريد." أسرع وأتاني بالطعام. فأكلت حتّى شبعت وارتحت ورُدَّت لي روحي. شكرتهم وحمدت الله على وصولي إليهم وأخبرتهم بقصّتي من أوّلها لحين عثورهم عليّ في الزورق.

تعجّب الرجال من أمري، واقترح بعضهم أن يأخذوني إلى ملكهم. وهكذا حملوا الزورق معي بجميع ما فيه من المال والجواهر والمعادن وأدخلوني على الملك. فسلّم عليّ ورحّب بي وسألني عن حالي، فأخبرته. تعجّب الملك من حكايتي وهنّأني بالسلامة. عندها قمت وجلبت من الزورق الكثير من الجواهر واللؤلؤ والعود والعنبر الخام وأهديته إلى الملك. وماذا عن الرجال الذين أنقذوني؟ لا شكّ أنّكم تسألون يا أصحابي لماذا أهديت الملك وما جازيت الرجال الذين أنقذوني وأخذوني لعنده؟ بصراحة، وأنا في حضور الملك نسيت الرجال العاملين في أرضهم، الذين لولاهم لما كنت الآن معكم أخبّركم حكايتي مع الجزيرة المسحورة. وعذري؟ حضرة المَلِك وجلالة المُلك في ذاك الزمان أنستني أنّي إنسان. لكنّ الأيّام القادمة ستسمح لي بالتعويض عن غلطة ذاك اليوم.

قَبِلَ الملك هديّتي وأكرمني وأنزلني في قصره. فاستعدت عزّتي وكرامتي وحبّي للحياة. وأثناء إقامتي في ضيافته، تعرّفت على أهل المدينة، وصاحبت أخيارهم وأكابرهم وتعاملت مع الناس العاديّين

الطيّبين منهم فأعزّوني معزّة كبيرة. كانت هذه فرصتي للعودة إلى المزارع والجناين، فشاركت أهلها أكلهم وشربهم وهمومهم وشغلهم وعرقهم وفرحهم ... صحيح أنّي ما كنت أفهم بالزرع، لكنّي حطّيت يدي معهم وما كانت يدي فاضية ولا مرّة!

صرت لا أفارق دار الملك وأصبحت من أقرب المقرّبين إليه وكأنّي واحد من أهله. وصار الواردون إلى تلك المدينة يسألونني عن أمور بلادي فأخبرهم بها، وأنا أسألهم عن أمور بلادهم فيخبرونني بها. وفي يوم، سألني الملك عن أحوال بلادي وعن حكم الخليفة في مدينة بغداد، فأخبرته بما سمعته، وبما أعرفه عن حكم الخليفة هارون الرشيد وعدله. تعجّب الملك ممّا أخبرته به وقال لي: "والله إنّ الخليفة له أمور عقليّة وأحوال مرضية وأنت قد حبّبتني فيه، ومرادي أن أجهّز له هديّة وأرسلها معك إليه." فقلت: "سمعًا وطاعة يا مولاي، يكون لي الشرف بأن أوصل هديّتك إليه وأخبره أنّك محبّ صادق."

أقمت في هذه المدينة مدّة من الزمان وأنا في غاية العزّ والإكرام وحسن المعيشة. وفي يوم من الأيّام، وأنا جالس في دار الملك، سمعت أنّ جماعة من المدينة جهّزوا سفينة للسفر فيها إلى مدينة البصرة. فقلت في نفسي: الأوفق لي أن أسافر مع هذه الجماعة. باللحظة ذاتها، أسرعت إلى الملك وأطلعته على رغبتي بالسفر. فقال لي: "الرأي رأيك، إن شئت الإقامة عندنا فعلى الرأس والعين، أنت تؤانسنا وتشرّفنا." فقلت: "والله يا سيّدي، غمرتني بجميلك وإحسانك ولكنّي اشتقت إلى أهلي وبلادي." قام الملك على الفور وأحضر التجّار الذين

يستعدّون للسفر وأوصاهم بي. وَهَبَني هبة كبيرة من ماله وكنوزه، ودفع عنّي أجرة المركب، وأرسل معي هديّة عظيمة إلى الخليفة هارون الرشيد بمدينة بغداد. ودّعت الملك وجميع أصحابي في المدينة وفي المزارع. ثمّ نزلت إلى المركب مع التجّار، توكّلنا على الله، وسرنا في البحر.

بقينا مسافرين من بحر إلى بحر ومن جزيرة إلى جزيرة. وقد طاب لنا السفر إلى أن وصلنا بالسلامة إلى البصرة. فأقمت فيها لأيّام معدودة ريثما جهّزت نفسي ونزّلت حمولي من المركب وحمّلتها في زورق وتوجّهت إلى بغداد، دار السلام. أوّل ما وصلت، استأذنت للدخول على الخليفة هارون الرشيد لأسلّمه هديّة صديقي الملك. ثمّ حملت أموالي وأمتعتي ودخلت حارتي وبيتي. سلّمت على أهلي وجاءني أصحابي وهنّأوني بالسلامة وفرّقت الهدايا على جميع أهلي وتصدّقت ووهبت.

وبعد مدّة، أرسل الخليفة بطلبي وسألني عن تلك الهديّة، من أين هي وما سببها والغاية منها. فقلت له: "يا أمير المؤمنين، هذه هديّة من ملك مدينة نسيت اسمها ... والحقيقة أنّي سمعت الاسم بلسان أهلها وما حفظته. فاعذرني يا مولاي إذا قلت إنّي والله لا أعرف اسم المدينة ولا الطريق إليها. كلّ ما أعرفه أنّ أهلها يشبهون الهنود والأحباش. وأنّهم قوم طيّبون وملكها كريم محبّ وصادق."

أخبرت الخليفة حكاية سفرتي: كيف تكسّر بنا المركب على الجبل ورمانا البحر في الجزيرة المسحورة، ورحلة الخلاص مع الزورق

والنهر في عتمة الجبل، وإقامتي في المدينة وكأنّي واحد من أهلها. وأخبرته بإعجاب ملك المدينة بأمير المؤمنين وتقديره لمقامه وهو ما دفعه لأن يرسل له هذه الهديّة القيّمة. تعجّب الخليفة هارون الرشيد من أخباري. وبلغ به العجب ممّا واجهته في سفرتي أنّه أمر المؤرّخين أن يكتبوا حكايتي ويجعلوها في خزانته ليعتبر بها كلّ من رآها. لهذه الدرجة! وأكثر. بعد أن انتهيت من حكايتي، كرّمني تكرمة عظيمة، وزيادة عليها رحّب بي في مجلسه بين مستشاريه وصحبه.

أقمت بمدينة بغداد على ما كنت عليه في الزمن الأوّل. فصرت آكل وأشرب وألهو وأطرب. وكعادتي بعد كلّ سفرة، استمتعت بثروتي فاشتريت الأملاك والعقارات، وتصدّقت وكسوت الأرامل والأيتام وهديت الأهل والأصحاب. وما نسيت الأحباب (وناول السندباد الحمّال كمشة ذهب). لكنّي نسيت ما قاسيته في البحر وفي البرّ. واشتاقت نفسي للمغامرة. وخطر ببالي السفر ...

قالت شهرزاد:

عندها، وَعَدَ السندباد البحريّ أصحابه، ومنهم السندباد البرّيّ، بأن يروي حكاية سفرته السابعة في ليلة الغد، إن شاء الله. وتوقّف عن الحكي.

وجاء الصباح. وسكتت شهرزاد عن الكلام المباح ...

وأنا ... أبحث عن زورقي

حكاية السفرة السابعة

قالت شهرزاد:

بلغني أيّها الملك السعيد أنّ السندباد البحريّ لمّا حكى حكاية سفرته السادسة وتركه أصحابه، جلس وحده يفكّر. ما هذه الأسئلة التي يطرحها السندباد البرّيّ؟ وكأنّه يشكّك بكلامي! ألا يصدّقني؟ لكنّه عندما يسألني عن المقامرة بمالي وحياتي، كأنّه يقرأ أفكاري! هل أصبح السندباد الحمّال مرآة لذهني، لحالي؟ مرآة يرى فيها حقيقة أمري؟ أو يرى فيها ما أريده أنا أن يراه في بالي؟

غدًا عندما يأتيني، سأسأله: ما الذي لا تصدّقه يا صاحبي؟ أهي حكايتي مع السمكة الحوت؟ مع الرُخّ أو النسر؟ مع الحيّات أو القردة؟ أهي حكايتي مع الملك الغول أو شيخ البحر؟ هل حقًّا تشكّك بحكايتي في مغارة الموت وعلى جبل المغناطيس النحس والجزيرة المسحورة؟ لعلّك تقول إنّ هذه كلّها من حكايات البحّارة والرحّالة قبلي. ربّما أنّهم تخيّلوها ولكن أنا عشتها. حقيقة! عشتها كلّ سنيّ عمري (طيّب، كلّ سنيّ شبابي!) قد تتساءل لماذا كُنتُ دائمًا الوحيد الذي ينجو. أهي الصدف؟ أم أنانيّتي كانت منقذتي؟ ما همّ كيف ولماذا نجوت وحدي؟ المهمّ أنّي عشت لأخبّر هذه الحكايا. فلا تعتب عليّ يا صاحبي. أنا صحيح رأيت بعيني رفاقي يموتون غرقًا وجوعًا

وخوفًا وقهرًا، لكنّي اجتهدت لأخلّيهم معي! ربّما هذا نصيبهم من الدنيا! وما أدراني أنا ما قاسوه قبل الموت الذي شَهِدتُ أنا عليه؟ ثمّ تسأل لماذا كنت كلّ مرّة أعود إلى البحر؟

غدًا، سأروي لأصحابي كيف:

"كانت رحلاتي أحلامًا
تبحث عن بحرٍ
يبحث عن ريحٍ
تبحث عن أشرعةٍ
تتشكّل في ذاكرتي!"

(غريب! كيف تختصرني كلمات هذا الشاعر من بلادي، وكأنّه هو مرآتي ورفيق روحي!)

ولمّا أتى الصباح، انتظر السندباد البحريّ صاحبه. لكنّ السندباد البرّيّ ما بكّر كما في كلّ مرّة. فاق من نومه، وعلى غير عادته، جلس في فراشه. ألقى رأسه بين كفّيه وراح يتساءل: أروح اليوم عند السندباد البحريّ أم لا؟ ألا أتشوّق لسماع حكاية السفرة السابعة؟

أكيد ستكون مثل باقي سفراته، المركب غرق ... وهو طلع عالجبل ... ونجا وحده من الجزيرة ...

ولكن يا سندباد يا حمّال انتبه! هذه آخر سفرة للبحريّ!

يعني أيّ جديد طلع له حتّى يتوب هذه المرّة؟

أكيد شيء غير شكل! وإلّا ما كان تاب! يالله يا حمّال! احمل حالك ورح لعند صاحبك! لا تفوّت عليك المغامرة الأخيرة! هذه أعظم رحلة! حتّى يتوب عن السفر لا بدّ صار معه شيء ردّه لعقله! أو شيء أخذ عقله منه!

ركض السندباد الحمّال إلى أن وصل إلى قصر صاحبه وكانت شمس الظهر تغطّي المصطبة. وقف لحظة جنب الباب (كأنّه سَمِعَ أنغام أوتار!) ثمّ دخل لعند السندباد البحريّ وهو يلهث. وقبل أن يسلّم عليه، قال له: "تأخّرت عليك يا صاحبي. اعذرني! بدأت بالحكي؟" ابتسم السندباد البحريّ وقال له: "لا بأس عليك! معقول أبدأ الحكي بدون كلّ أصحابي! تفضّل اقعد! بلّ ريقك وريّح بالك! واصبر شويّ!" لكنّ السندباد البرّيّ ما صبر: "بالله تخبّرني، ماذا حصل معك في هذه السفرة؟ أكيد شيء لا يتصوّره العقل حتّى ما عدت تعيدها! خبّرني!" طيّب السندباد البحريّ خاطر صاحبه، وسقاه من شرابه الطيّب (أكثر من كأس) فاستعاد أنفاسه. وجلس وإيّاه مع بقيّة أصحابه. وجاء المساء، فأكلوا وشربوا وانبسطوا. وبدأ بالحكي، فقال:

اعلموا يا أصحابي أنّي لمّا رجعت من السفرة السادسة وقد حصّلت فيها مكاسب كثيرة وفوائد عظيمة، عدت إلى حياة البسط والانشراح واللهو والطرب. ونسيت متاعب السفر. لكنّي ما نسيت أنّ الدنيا فيها أمور كثيرة حلوة غير الأكل والشرب! كيف أنسى؟ لا أخفي عليكم يا أصحابي أنّي عندما كنت أعود إلى البحر كنت (أحيانًا!)

أهرب من الضجر. وكنت أقامر بحياتي، كما يتّهمني بعضكم، لأهرب من الموت البطيء. ففي البحر حياة جديدة مع كلّ موجة، مع كلّ غيمة، مع كلّ نسمة، مع كلّ ريح جديدة ومع كلّ شراع. وفي كلّ سفرة كان الشوق رفيقي ... كنت أشتاق للبحر، وأشتاق لبلادي وبيتي ... وأمّي ... أمّي التي تنتظرني وبعينيها دمعة الفراق ودمعة اللقاء. ألأنّي أحنّ إلى وجه أمّي كنت أسافر كلّ مرّة وكلّ مرّة أعود؟

أقمت في مدينة بغداد مدّة وأنا في غاية الهناء، وقد أصبحت من زوّار الخليفة الدائمين، وعاشرت أصحابه الكبار. لكنّ نفسي اشتاقت إلى عِشرة التجّار وسماع الأخبار، وإلى الفرجة في بلاد العالم وسائر البحار والأنهار. فقرّرت السفر. قمت وحزمت أغراضي وسط صلوات أمّي ودعواتها: "الله يحميك يا أمّي ... ويوفّقك كيفما وجهك اندار!" اشتريت بضائع فاخرة، حمّلتها في الزورق، ونزلت في نهر دجلة إلى البصرة. هناك، بحثت عن مركب جاهز للسفر (ما عاد بوسعي الانتظار). فوجدته. وكان فيه جماعة من التجّار الكبار، فاستأنست بهم ونزلت معهم. وأبحرنا بسلام.

طابت لنا الريح. وسرنا من بحر إلى بحر ومن جزيرة إلى جزيرة حتّى وصلنا إلى مدينة في بلاد الصين. ونحن على المركب في غاية الانشراح نتبادل الأطعمة الفاخرة، ونتسايرفي أمور التجارة والسفر وأجناس البشر، إذا بعاصفة عظيمة تهبّ علينا بدون إنذار! لا رعد ولا برق! ولكن، هواء ومطر، وكأنّ السماء فتحت أبوابها علينا ورمتنا بكلّ ما عندها. ريح عاصفة هبّت من مقدّمة المركب. ونزل علينا مطر

شديد (كالمنجنيق) ما كنّا نعرف من أيّ جهة ينزل ولا بأيّ اتّجاه. احترنا كيف نحتمي. وما عدنا شفنا بعضنا من المطر والموج. كان النازل من السماء أكثر من الطالع من البحر!

وعيت على حالي في قلب العاصفة، وكان سطح المركب طاف، ونحن الركّاب تبلّلنا. خفنا على بضائعنا من التلف. قمنا (البعض منّا ممّن تمكّن من الوقوف على رجليه)، وجمّعنا كلّ ما لقيناه من الصوف واللبّاد والخيش وأكياس الجنفيص وغطّينا البضايع لنحميها، أو أقلّه لننقذ ما بقي منها. وصرنا نصلّي، وندعو الله ونتضرّع إليه. عندها قام رئيس المركب وشدّ حزامه وتشمّر وطلع الصاري. صار يتلفّت ... وعيوننا معلّقة فيه تلاحقه من الشمال لليمين ... ومن اليمين للشمال بانتظار أيّ خبر، مليح أو وحيش! نظر الريّس إلى الركّاب ... رمى عمامته ... وصار يخبّط وجهه وينتّف لحيته. انقطع نَفَسي من الخوف. تشاءمت. فكلّ مرّة رئيس المركب يلطم وجهه وينتف لحيته تصيبنا كارثة! في السفرة الماضية انتهينا على جبل المغناطيس النحس ... واليوم؟

نزل الريّس من فوق الصاري. لكنّ الواضح من حركاته ولون وجهه أنّه ما كان يحمل لنا إلّا أخبار الشؤم. تجمّعنا حوله وفي عيوننا ألف سؤال وسؤال. لكنّي الوحيد الذي سأله: "ما الخبر يا ريّس؟ طمّنا!" رفع أكتافه، وطّى رأسه وتطلّع عليّ من فوق (كان أطول منّي وعضلاته مفتولة ... لا تقولوا إلّا بحّار!) بَحلَقَ بعيوني وقال لي بالحرف الواحد: "رُح اطلب من الله ينجّيك!" "أنا أصلّي لله بكلّ

لحظة! لست بحاجة لأمرك ولا لإذنك!" جاوبته فورًا ودون تفكير. وأعدت عليه السؤال (بتهذيب هذه المرّة): "سألتك ما الخبر يا ريّس؟ وممَّ نطلب النجاة؟" التفت ناحية الركّاب وقال: "ابكوا على حالكم وودّعوا بعضكم!" صار الركّاب ينتحبون قبل أن يسمعوا بقيّة الخبر. وتابع: "لقد غلبتنا الريح ورمتنا في آخر بحار الدنيا." ماذا يعني في آخر بحار الدنيا؟ فكّرت، وما تفوّهت بكلمة!

قال الريّس كلمته، وتوجّه إلى مقصورته. فتح صندوق خشب معتّق وأخرج منه حزمة مثل الكيس. فَكَّها وأخرج منها مادّة ترابيّة بلون الرماد. بَلَّ التراب بالماء وصبر عليه قليلًا ثمّ شمّه. كلّ هذا ونحن ننظر إليه مذهولين لا نعي ماذا يفعل! رجع وركع جنب الصندوق، وبهدوء أكثر من السابق، رفع يديه كأنّه يبتهل ثمّ أدخلهما في الصندوق وأخرجهما وهو يمسك بكتاب صغير قديم (من عمر ستّي!) مسحه بكفّه (على أكثر من مهله). فتحه وقرأ فيه بصمت. أدار وجهه إلينا (ونحن لا نفهم مغزى حركاته) وقال: "يا ركّاب السلامة، في هذا الكتاب أمر عجيب يدلّ على أنّ كلّ من يصل إلى هذه الجهة من الأرض لا ينجو منها، بل أنّ مصيره الهلاك لا محالة." تابع الريّس كلامه وكأنّه معلّم الجغرافيا أو التاريخ القديم في مدرسة من مدارس بلادنا: "هذه الجهة من الأرض تسمّى إقليم الملوك وفيها قبر سيّدنا سليمان بن داوود عليهما السلام، وفيه حيّات عظام الخلقة هائلة المنظر. وكلّ مركب وصل إلى هذا الإقليم يطلع له حوت من البحر فيبتلعه بجميع ما فيه." أغلق الكتاب وصمت.

تعجّب الركّاب من حكاية الريّس وصاروا يتبادلون النظرات غير مصدّقين آذانهم. أمّا أنا فاحترت، أصدّق أو لا أصدّق؟ فأنا ركبت العديد من البحار (والأنهار) وأصابني فيها من الأهوال ما لا يمكن أن أحصيه كثرة أو أصفه غرابة. وفي سفراتي شاهدت الكثير من أنواع السمك الكبير والصغير والقرش والتماسيح والحيتان. فلماذا أشكّك بكلام الريّس؟ بصراحة، الخلط بين الحيتان والحيّات هو الذي أربكني. حيتان في البحر فهمنا. ولكن حيّات! أنا شفت الحيّات في الوادي ونمت معها في المغارة ... ولكن في البحر! صحيح أنّي سمعت بحيّات البحر، لكنّي لحدّ الآن ما شفتها بعيني! وما زاد من ارتباكي أنّي سبق وقرأت من أخبار عجائب البحار لمن يخلط بين الحيتان والحيّات (انتبهوا لقرب التهجئة!) فهل كتاب الريّس واحد من هذه الكتب القديمة؟ وماذا ينتظرنا في هذا البحر الذي قال الريّس إنّه آخر بحار الدنيا؟ حيتان أو حيّات؟ أو كلاهما؟

وأنا غرقان في شكوكي، ما عرفت كيف صار المركب يرتفع بنا ثمّ ينزل. ودوّت صرخة عظيمة مثل الرعد القاصف. ارتعبت. صار الركّاب يتأرجحون مع المركب، بعضهم يصرّخ وقد أيقنوا بالهلاك، وآخرون وقعوا كالأموات. بقيت على رجليّ وتمسّكت بحبل الشراع، وإذا بحوت عظيم قد أقبل على المركب كالجبل العالي. فزعت من خلقته الهائلة. تراجعت وسَقَطتُ في أرضي. تَجَمَّدتُ! ماذا أفعل؟ أهرب؟ إلى أين؟ سمعت صراخ الركّاب وبكاءهم، والريّس ينادي علينا أن نتجهّز للموت. وصل الحوت إلى المركب، وفي اللحظة ذاتها أقبل

علينا من الجانب الثاني حوت آخر أعظم منه، وحوت ثالث أكبر من الاثنين (هيئته تسرسب! أعلى من الشراع!) هاجَمَنا من المقدّمة.

كيف أصف لكم حالتنا؟ كان عندنا الوقت لنودّع بعضنا أو نبكي على أرواحنا؟ كلام فارغ! غارة الحيتان ... هجمة الحيتان (ماذا أسمّيها؟) كانت مفاجِئة لدرجة لا يمكن تصوّرها! ومرعبة! حتّى لو كنت أشاهدها من بعيد لكان عقلي طار ... فكيف وأنا في قلب العاصفة! ضاعت عقولنا من الخوف والفزع والدهشة. وما عدنا واعيين على حالنا. وغارة الحيتان ما تَوَقَّفَت. داروا حول المركب. صار واحد يطلع وواحد ينزل. ارتفع الأوّل بالفضاء ورجع غطس بالبحر. وجاء الثاني ولعب اللعبة ذاتها! أمّا الثالث ... فيا ويلي من الثالث ما أفظعه! صارَ يَهُزّ البحر، فيُبَيّن جناحه مثل الشراع العظيم، ويَرجِع يُظَهّر رأسه ويَنفُخ بالطلوع ويَروح الماء بالجوّ مثل السهم. ولمّا انتَهَت بهلوانيّاته هَوى على المركب ليبلعه.

لا أعرف إذا كان الموج الذي أحدثته غارات الحيتان، أو ريح عظيمة غيّرت مجرى اللعبة! كلّ ما أعرفه أنّ المركب، وقبل أن يبلعه الحوت، قام في الجوّ وسقط على جبل عظيم فتكسّرت ألواحه وتفرّقت وغرقنا جميعنا، البحريّة والركّاب، كلّنا صرنا في البحر. نظرت حولي ... لا أحد من رفاقي ... صرت وحدي، لكنّي بعيد عن الحيتان (أو هكذا بدا لي!) خلعت ثيابي الثقيلة والسميكة وما بقي عليّ غير ثوب واحد. ثمّ عمت قليلًا ولحقت بلوح من ألواح المركب

فتعلّقت به وطلعت عليه. وصارت الأمواج والرياح تلعب بي على وجه الماء.

بقيت يومين وليلة، وأنا قابض على اللوح والموج يرفعني ويحطّني. تعبت وجعت وعطشت وخفت! خفت من الحوت يهتدي عليّ فأعلق ... وخفت من الموج إذا نمت يقلبني فأغرق ... وحتّى لا أسترخي فأغفو، عدت إلى الملامة والندامة: يا سندباد يا بحريّ، متى تتوب؟ كلّ مرّة تقاسي الشدائد ولا تتوب عن السفر، وإن تبت تكذب في التوبة. تستاهل ... أنت تستحقّ كلّ الذي يصير معك.

ولكن، بماذا أخطأت؟ كلّ ما عملته أنّي أسافر للبحث عن رزقي ومالي.

هذا طمع! أنت عندك مال كثير ولست بحاجة للسفر لتحصّل رزقك ... إلّا إذا كنت تبحث عن شيء آخر في البحر ... عن حلم ... عن سرّ من الأسرار!

ربّما أنا أبحث عن سرّ ما اهتديت إليه بعد! ولكن ما ذنبي إذا البحر أسراره كثيرة وعجايبه كبيرة؟ لا ... لا! كلّ ما يصيبني مقدّر من عند الله! هذا نصيبي.

أيّ نصيب وأيّ قدر تحكي عنه أنت يا رجل؟ ذكّرتني بالمثل الدارج: "اضربه وصيبه وقل نصيبه!" نصيبك يا صاحبي بيدك أنت. أنت وحدك قادر تخلّص نفسك ... المهمّ أن تتخلّى عن طمعك وترجع لعقلك.

خلص ... إذا الله نجّاني من هذه السفرة سأتوب ... توبة صادقة هذه المرّة ... أقسم بالله. وما بقيت بعمري أذكر السفر لا على لساني ولا في خاطري.

صرت أصلّي وأبكي ... وخطرت ببالي أمّي!

ليومين وليلة، وحدي أنا واللوح، شال بنا الموج وحطّ ألف مرّة ومرّة، إلى أن رمانا على جزيرة عظيمة فيها الكثير من الأشجار والأنهار. فصرت، بدون وعي، آكل من ثمارها وأشرب من مائها حتّى انتعشت ورُدَّت لي روحي. وبعد أن قَوِيَت همّتي، قمت أتمشّى في الجزيرة لعلّي أجد نقطة ضوء أنفذ منها ... نجمة تدلّني على طريق الخلاص. لفت نظري نهر عظيم في الجانب الثاني من الجزيرة، ونوع من الشجر، زهره أبيض، وثمره مثل العناقيد بحبّ أخضر. اقتربت من النهر: ماؤه عذب، لكنّه يجري بقوّة، ويتدفّق من علوّ شاهق مثل الشلّال. ماذا أفعل؟ هل أقف أتأمّل الطبيعة الخلّابة وألوم نفسي مثل المهبول؟ وتذكّرت حالي أنا والنهر والزورق في رحلة النفاذ من الجزيرة المسحورة في سفرتي السابقة. وفكّرت: الزورق هو الحلّ. إن نجوت حصل المراد وتبت عن السفر، وإن هلكت ارتاح قلبي من تعب البحر ومن الضجر.

قمت وجمّعت شقعة من خشب الشجر صاحب العناقيد الخضر. يومها ما كنت أعرف ما هو ولكن شدّتني إليه رائحة الخشب. يا الله ما أطيب هذه الرائحة! مثل العطر. يا سلام! بعد أن

جهّزت الأخشاب، حوّشت من جوز الهند الواقع على أرض الجزيرة، قشّرته ونقعت القشور بالماء. وجمعت كمّيّات من الأغصان والنباتات وخلطتها مع قشر الجوز المنقوع وفتلتها مثل الحبال. شددت الأخشاب العطريّة بالحبال وعملت الزورق. نزّلته في النهر. ركبت فيه. وسلّمت أمري لله.

سرنا، أنا وزورقي والنهر بدون مشاكل حتّى خرجنا من آخر الجزيرة وبَعُدنا عنها. بقينا نازلين أوّل يوم والثاني والثالث، وأنا دايخ من خضخضة النهر، وجوعان (بلا أكل من يوم تركنا الجزيرة!) وكنت إذا عطشت أشرب من مياه النهر. صرت مثل الدجاجة المضروبة على راسها، دوخان وجوعان وتعبان ونعسان. أمّا الخوف! فحدّثوا ولا حرج!

وصلنا، أنا وزورقي والنهر إلى جبل عظيم. انقطع نَفَسي! لمّا شفت أنّ النهر يجري من تحت الجبل العالي، عادت إلى مخيّلتي تلك المغامرة النهريّة في رحلتي من الجزيرة السحريّة. خِفتُ أن يضيق الجبل علينا وأختنق. فكّرت لحظة. وقبل أن أوقف الزورق وأطلع منه إلى الجبل، غَلَبَني النهر وسحب الزورق وأنا فيه، ونزلنا ثلاثتنا تحت الجبل. راحت عليّ مؤكّد! فكّرت، لا حول ولا قوّة إلّا بالله. هذه آخرتي!

سار الزورق مسافة طويلة، ثمّ طلع إلى مكان واسع مثل الوادي. كان ماء النهر يهدر في هذا الوادي الكبير، يدوّي مثل الرعد ويجري مثل الريح. وأنا؟ قبضت على الزورق. تمسّكت بجانبيه بيديّ وأظافري (ولو شويّ بأسناني)، قعدت على ركبي، وألقيت رأسي على

الخشب العائم. صارت الأمواج تلعب بي وتتقاذفني من اليمين إلى الشمال، والزورق ينحدر مع مياه النهر الجارف إلى أن وصلنا إلى بحيرة تتدفّق فيها المياه وتصبّ في الوادي من على علوّ شاهق. من دون وعي، انبطحت في الزورق. وقَذَفَنا الشلّال الهادر إلى قعر الوادي. انقلب الزورق عليّ ووقعنا في المصبّ. وما عدت أرى لا زورقي ولا أيّ شيء من حولي! غمرتني المياه. الشلّال من فوقي (ويا ويلي من هالشلّال!) ومجرى النهر الجارف من تحتي، وأنا في الوسط أبحث عن زورقي.

ما خَذَلَني الزورق ولا النهر! فجأة ودون أن أعي كيف، وجدت نفسي على ضفّة النهر بين اليابسة والماء. قذفني التيّار وألْحَقَ الزورق بي، فخَبَطَني على رأسي. وغِبتُ عن الوعي. لا أدري كم بَقيتُ على هذه الحالة. كلّ ما أذكره أنّي أَفَقتُ على البرّ وحولي جماعة من الرجال. كانت ثيابهم مبلّلة وعيونهم مسمّرة عليّ وذقونهم ترتعش (من البرد أو الخوف؟ لا أدري!) لمّا شافوني وعيت، صاحوا بصوت واحد: "هلاااهووو!" ما سَألوني أيّ سؤال! حَمَلوني ومَشوا!

في الطريق أخبروني (واحد منهم حكى لي بلغة عربيّة مكسّرة) أنّهم لمحوا الزورق وهو في قلب الشلّال قبل سقوطه في المصبّ. لمّا رماني التيّار على حافّة النهر، كانوا هم قد وصلوا بشباكهم وحبالهم. ألقوها عليّ وسحبوني إلى البرّ قبل أن يجرفني التيّار من جديد وأنا فاقد الوعي. ما فقدوا الأمل. انتظروا دقائق إلى أن عادت لي الحياة. حين استعدت نَفَسي وفتحت عينيّ، غشيت بالبكاء (هكذا فهمت من

الحكي والإشارة!) هنّأوني على سلامتي (أكثر من مرّة! وبالإشارة!) حملوني مع الزورق وأخذوني إلى مدينتهم.

وصلنا إلى المدينة وأنا على آخر نَفَس، ميّت من التعب والجوع. ما لاحظت أنّها مدينة عظيمة وفيها خلق كثير، إلّا بعد أن زرتها بعد مدّة. حملني الرجال إلى محلّ في قلب المدينة. وما إن انفتح الباب حتّى سَقَطتُ على الأرض، فتلقّاني رجل مسنّ. رحّب بي (بكلمات عربيّة معدودة) وأعطاني جعبة فيها ثياب نظيفة تستّرت بها، وشيء للأكل، فأكلت ورُدَّت لي روحي. ثمّ أخذني إلى الحمّام وجاء لي بالمشروبات المنعشة والروائح الزكيّة. بعدها أخذني إلى بيته وقدّمني لأهله ففرحوا بي! أجلسني الشيخ في صدر داره وأحضر لي صينيّة مليئة بأنواع الطعام الفاخر، فأكلت حتّى شبعت. وجاءني خدمه بالماء الساخن ومناشف الحرير، فغسلت ونشّفت يديّ وفمي. ثمّ أخلى لي الشيخ غرفة منفردة مثل العلّيّة بجانب بيته الكبير، وأمر العاملين عنده من خدم وطبّاخين وحمّالين بخدمتي وتلبية جميع طلباتي. شكرته على كرمه. وحمدت الله على نجاتي على يد أهل هذه المدينة الطيّبين.

بقيت في ضيافة هذا الشيخ العظيم ثلاثة أيّام، وأنا على أكل طيّب وشرب طيّب ورائحة طيّبة حتّى ارتحت قليلًا. كان بودّي القول: حتّى هدأ قلبي ... وارتاحت نفسي! لكنّ الحقيقة أنّ نفسي ما كانت مرتاحة. كان القلق ينتابني بين الحين والآخر خصوصًا في الساعات الطويلة التي أمضيها في غرفتي دون أن أتلفّظ بكلمة مع أحد، لا مع

الشيخ ولا مع القائمين على خدمتي (هم لا يفهمون لغتي على كلّ حال). انشغل بالي. ماذا يخبّيء لي القدر هذه المرّة؟ من هو هذا الشيخ؟ لماذا يطعمني ويسقيني؟ (تذكّرت الملك الغول الذي علف رفاقي وسمّنهم وأكلهم!) ماذا يريد منّي هذا الشيخ؟ الغريب أنّه لحدّ اليوم ما سألني حتّى من أكون ... ولا من أين جئت ولا كيف وصلت لعنده! يا الله ماذا أفعل؟

في اليوم الرابع، وأنا غارق في تساؤلاتي، جاءني الشيخ وقال لي: "آنستنا يا ولدي والحمد لله على سلامتك. هل تقوم معي وتنزل السوق فتبيع البضاعة وتقبض ثمنها، لعلّك تشتري بها بضائع أخرى تتاجر فيها." استغربت كلامه وما جاوبت. وسألت حالي: عن أيّ بضاعة يتكلّم هذا الشيخ؟ ومن أين لي بالبضاعة لأتاجر فيها؟ لمّا لاحظ الشيخ ارتباكي، قال: "لا تشغل بالك يا ولدي! قم معي إلى السوق، فإن وجدنا من يعطيك في بضاعتك الثمن الذي يرضيك أقبضه لك، وإلّا نحطّها عندي في المخزن حتّى يتحسّن السوق. ولا تعتل همّ التخزين، فبضاعتك ستكون بمأمن مع بضائعي وحواصلي." ما فهمت كلام الشيخ. ما هذه البضاعة التي أملكها وتستحقّ التخزين؟ وماذا يقصد بأنّها ستكون بمأمن مع حواصله؟ هل يعني أنّه سيحفظها مع ما حصّله من خلاصة الفضّة والذهب والمعادن الثمينة والحجارة الكريمة؟ ولكن من أين لي بمثل هذه البضاعة؟ أيعقل أنّها من حجارة النهر علقت بثيابي وزورقي؟

أمام إصرار الشيخ وعناده، وبما أنّي من خلقتي تاجر، فكّرت بالمسألة وقلت بعقلي: طاوِعه يا رجل حتّى تعرف ما هذه البضاعة. ماذا تخسر؟ فقلت له: "أمرك يا عمّي الشيخ، فيك البركة، نعمل مثلما تريد." ثمّ جئت معه إلى السوق فوجدت جماعته (الرجال الذين حملوني إليه في المدينة) مع رجال آخرين متجمّعين حول شقعة من الخشب تفحّ منها الرائحة الطيّبة. "ولكن، هذا زورقي الذي نزلت فيه بالنهر!" قلت بدهشة. "أكيد،" جاوبني الشيخ، "ونحن فَكْفَكنا الزورق لنبيع الخشب بالمزاد العلنيّ. ألا تعرف أنّ الصندل من أغلى أنواع الخشب؟" وقبل أن يسمع جوابي، وأنّني سمعت بخشب الصندل لكنّي لا أعرفه، أطلق المزاد. انهبلت! هذا هو خشب الصندل؟ ألهذا جذبتني الرائحة؟ ألهذا تعلّقت بزورقي؟

فتح التجّار سعر الخشب وتزايدوا فيه إلى أن بلغ ثمنه ألف قطعة ذهبيّة. وعندما توقّفوا عن المزايدة، التفت الشيخ إليّ وقال: "اسمع يا ولدي، هذا سعر بضاعتك اليوم، تبيعها بهذا السعر أو تصبر حتّى يرتفع ثمنها؟" جاوبته: "الأمر أمرك يا سيّدي، افعل ما تريد." فقال: "يا ولدي، أتبيعني هذا الحطب بزيادة مائة قطعة ذهبيّة فوق ما دفعه التجّار؟" فقلت: "بعتك وقبضت الثمن." عندها أمر رجاله بنقل الخشب إلى مخزنه، ورجعنا إلى بيته. جلسنا. عدّ ثمن الخشب، وحطّ المال في أكياس. قفل عليها بقفل حديد، وأعطاني المفتاح. وهكذا بين ليلة وضحاها، صرت صاحب ثروة عظيمة ومن أكبر التجّار في المدينة.

بعد مدّة، كنّا، أنا والشيخ، نتمشّى في حديقة داره ونتسايرر. أخبرته عن حالي وبيتي وبلادي، وعن رحلاتي في البحر. وفي مجرى الحديث، نظر الشيخ إليّ (نظرة كلّها حنّيّة) وقال: "يا ولدي سأعرض عليك مسألة أرجو أن تطاوعني فيها." فقلت: "خير؟" فقال: "أنت تعرف أنّي رجل كبير في السنّ، ولا ولد ذكر لي. وعندي بنت صغيرة، جميلة وظريفة وعندها مال كثير، بودّي ... " وقبل أن يكمل كلامه، أَخَذَني الحنين إلى الماضي ... إلى امرأتي التي أحببتها ... "بودّي أزوّجها لك وتقعد معها في بلادنا." أَعادَني صوت الشيخ إلى حالي. وتذكّرت تجربتي الأولى مع الأنثى ... كم أحببتها وأحبّتني وتَعَلَّقتُ بها وتَعَلَّقَت بي ... لكنّها رحلت وتركتني ... تركتني وحدي ... أموت في قبري ... كيف أتزوّج امرأة أخرى؟ أنسى حبّي الأوّل؟ أنسى ما جرى لي! "بودّي أزوّجها لك وتقعد معها في بلادنا!" يقول لي الشيخ. وهل في بلادكم تدفنون الرجل والمرأة بالحياة؟ وَدَدتُ لو أسأله. لكنّي خِفتُ. كيف أسأله بعد كلّ ما فَعَلَه معي؟ خجلت. ثمّ هو ما أعطاني فرصة للكلام. تابَعَ يقول: "أريد أن أملّكك جميع ما عندي. فأنا رجل مسنّ، وأنت تقوم مقامي."

سَكَتُّ. وغَرِقتُ في تساؤلاتي:

ماذا يخبّيء لي هذا العرض؟ أتزوّج ابنته وأرث أملاكه! الشيخ غنيّ وعنده أملاك كثيرة ولكن لماذا أنا؟ أنا الرجل الغريب يزوّجني ابنته!

هي جميلة وظريفة ...

ولكن هل تصلح للزواج؟ ما أدراني أنا؟ فأنا ما رأيتها وما لمحتها ولا لمحة! ثمّ هو يقول إنّها صغيرة، يعني كم سنة عمرها؟ وكيف يزوّجها لرجل أكبر منها بعقود؟ وماذا لو أنّها تعشق غيري؟ يزوّجها لي دون الأخذ برأيها!

ربّما حدّثها بالموضوع.

ولكن هل وافَقَت؟

ربّما يخاف أن يموت دون وريث.

ولماذا لا يترك إرثه لها؟ فهذا حقّها كما هو حقّ الذكر (لو كان عنده ولد ذكر).

ربّما هي قاصرة، وهو يخاف أن يموت ويتركها دون معيل.

وماذا عن أمّها؟

وماذا لو أمّها تزوّجت وحَرَمَها زوج الأمّ من ميراثها؟

معقول؟

معقول ونصّ! لن تكون أوّل مرّة ولا آخر مرّة!

ولكن أعود إلى السؤال الأوّل، لماذا أنا؟ أيعقل أنّ الشيخ طمعان بمالي ويريد أن يكدّس الثروات بحجّة ابنته، وعلى حسابها؟ ثمّ أنا الآن ميسور وصار عندي مال كثير ...

"أطعني يا ولدي! فأنا أريد لك الخير." انتشلني صوت الشيخ من حيرتي. "إن زوّجتك ابنتي تصير كلّ أملاكي لك."

ولكن، هل أنا بحاجة للزواج ... وفي هذه البلاد البعيدة ليزيد مالي؟ وماذا عن بلادي وأهلي؟ آه، أين أنتِ يا أمّي؟ أين وجهك ينير دربي؟

"اسمع يا ولدي،" صحّاني صوت الشيخ للمرّة الثانية (وكأنّه كان يقرأ أفكاري)، "إن أردت التجارة والسفر إلى بلادك، لا أحد يمنعك. هذا مالك في يدك فافعل به ما تريد وما تختاره."

الذي قاله الشيخ في تلك اللحظة، كلماته وصوته الحنون، المرتعش، ردّني إلى حالي. نفضت رأسي (والأفكار السوداء التي راودتني)، وقلت له: "والله يا عمّي الشيخ أنت صرت مثل والدي. ولا أخفي عليك، أنا قاسيت الأهوال قبل وصولي لعندك. وبصراحة ما عدت أعرف القرار الصحّ من الخطأ. أنا أثق بك وبرأيك ... فالأمر أمرك في كلّ ما تبغيه." وفي الحال، أمر الشيخ بإحضار القاضي والشهود وزوّجني ابنته. عمل لنا وليمة عظيمة دعا إليها أكابر المدينة. وكان في الفرح الكبير رقص وموسيقى وغناء (من أجمل ما يكون!) ولكن، كلّ هالعرس الطويل العريض والعريس بلا العروس! أين العروس؟ كنت أتحرّق شوقًا لرؤيتها ...

أدخلني الشيخ عليها بعد انتهاء الحفل. بهرني جمالها ... وغناها. جمدت مكاني. وقفت أتأمّلها وكأنّي أمام تمثال لإلهة من آلهة اليونانيّين القدماء! روعة! مضت لحظات وأنا في غرفتها وحدنا. تسمّرت في أرضي أتأمّلها بصمت وخشوع. وتخيّلت نفسي وكأنّي في هيكل عظيم أمام تماثيل متعدّدة لإلهة الجمال، محفورة من الذهب

والفضّة والياقوت والزمرّد وأنواع الأحجار. احترت أيّها أجمل وأغلى! كيف أصف لكم عروسي؟ باختصار وبالعربيّ الفصيح (القديم والجديد!) رأيتها في غاية الحسن والجمال، بقدّ واعتدال، وعليها شيء كثير من أنواع الحليّ والحلل والمصاغ والعقود والجواهر الثمينة، وما قيمتها إلّا ألوف الألوف من الذهب، ولا يقدر أحد على ثمنها. لقد صدق الشيخ. هي بحقّ صاحبة جمال عظيم ومال كثير. ولكن، لماذا أنا؟ عدت أتساءل. لماذا، من بين كلّ رجال المدينة، وقع اختياره عليّ أنا ليهبني هذه الجوهرة؟ هذا الكنز؟ لعلّها مجنونة! وَقَفتُ للحظات دون حركة. سمعت حمحمة خفيفة وحفيف ثوبها وطقطقة عقودها وأساورها. خَطَت نحوي خطوتين. اِقتَرَبتُ منها. نظرت في عينيها. عانقتها بحنان. قبّلتها. وتعانق الجسدان.

أحببت امرأتي وأحبّتني (بلغتي وبلغتها التي علّمتني!) عِشقُها لي أَنساني همومي. ما نسيت حبّي الأوّل (كيف أنسى جروحي؟) لكنّي معها نسيت أوهامي (وبعض أحلامي!) عشنا مدّة ونحن في غاية الأنس والبسط. في هذا الوقت، توفّي والدها. وكما أوصى، وضعت يدي على كلّ أملاكه وعقاراته وكلّ أعماله وماله! وصار جميع العاملين عنده عمّالي وفي خدمتي. وولّاني التجّار مرتبته لأنّه كان شيخهم، وما كانوا يتصرّفون إلّا بمعرفته وإذنه. فصرت أنا في مكانه، الآمر الناهي على أهل بيتي وعلى كثيرين من أهل المدينة.

مقامي الجديد أعطاني فرصة لأتعرّف على المدينة وأهلها. تعاملت معهم وعاشرتهم. ومع طيبتهم، تنبّهت لأمر غريب في سلوكهم،

ولتغيير يصيب هيئتهم كلّ شهر. بدأت أراقبهم. وبعد مدّة من المراقبة والترقّب، وجدت أنّ حالة الرجال منهم تنقلب تدريجيًّا، فيتغيّر لونهم وتَتَرَوَّس أكتافهم في الأيّام الأخيرة من عمر القمر. وما إن يطلع البدر حتّى تطلع لهم أجنحة عظيمة يطيرون بها إلى السماء. ولا يبقى أحد في المدينة غير الأطفال والنساء. استغربت هذا الأمر. فأنا في رحلاتي شفت الكثير من الغرايب. وسمعت بأخبار البحار وما فيها وما حولها من العجائب والأمم. وعشت مع الرُخّ والنسر من جنس الطير. لكنّي ما سمعت عن أطيار من الإنس أو عن جنس طيّار من أجناس البشر، ولا ذكر لمخلوقات مجنّحة إلّا من جنس الملائكة أو الجنّ!

هيئة المجنّحين أثارت حشريّتي. وحرّك طيرانهم شغفي بالمغامرة. وعدت أحلم بالسفر (وإن بعيدًا عن البحر). بعد أن تأكّدت من أنّ تبدّلهم يتكرّر في وقت محدّد من عمر القمر، فكّرت أن أنتظر حتّى منتصف الشهر، فأسأل بعض الرجال من عمّالي أن يحملوني معهم إلى حيث يروحون. ولكن ماذا أقول لهم؟ كنت أراقبكم؟ بأيّ حقّ؟ فهم ليسوا ملكي. صحيح أنّهم يعملون عندي، لكنّهم ليسوا عبيدي! ماذا لو رفضوا؟ أعاقبهم؟ لكنّهم ما تأخّروا يومًا عن عملهم، وهم أحرار فيما يفعلونه في أوقات راحتهم، فلا حقّ لي في معاقبتهم. ثمّ لماذا أتجسّس عليهم؟ فهم ليسوا أعدائي ولا آذوني. بالعكس هم أنقذوني من التيّار. كيف أنسى؟ أهكذا أردّ جميلهم؟ ربّما لهم هم الحقّ بأن يقاضوني لأنّي أتدخّل بخصوصيّاتهم! كيف أقنعهم أن يحملوني معهم؟ ما لك يا سندباد! كلّ مهارات المفاوضة والمراوغة التي

اكتسبتها من التجارة والمغامرة وتتردّد؟ وماذا عن فنّ البقاء، وقدرتك على التعايش مع الغرائب والغرباء؟ أكيد، بذكائك لن تُعدَم وسيلة لإقناعهم. يجب أن أفاتحهم مهما كان الجواب، قلت لحالي، يجب أن أجرّب!

بقيت شهرين وأنا محتار. وأخيرًا أخذت القرار. لمّا جاءت الليلة الأخيرة من عمر القمر، ولاحظت أنّ ألوان الرجال تغيّرت، دخلت على صاحبي من الجماعة التي أنقذتني، وقلت له (بدون مقدّمات): "احملني معك حتّى أتفرّج وأعود معك." اندهش! وما ردّ! كرّرت رجائي. فقال لي: "لا يمكن ... مستحيل!" بقيت أناقشه بالموضوع وأفاوضه حتّى وافق (ولو أنّه ما اقتنع تمامًا). وبالليلة ذاتها، نمت عنده كي لا تفوتني السفرة! وما أعلمت زوجتي بغيابي. طلع البدر وطلعت أجنحة الرجال. تجمّعوا للطيران (استغربوا وجودي بينهم، لكنّهم ما تلفّظوا بكلمة!) واستعدّوا للانطلاق! تعلّقت بصاحبي وطار بي في الهواء.

انخطف نَفَسي. تكمّشت بأكتاف صاحبي. قعدت على ظهره. أخفيت رأسي خلف جوانحه. وغمّضت عينيّ. أهو الخوف؟ فأنا طرت مع الرُخّ وانرعبت! يومها تعلّقت بمخالبه وطرت تحت جناحيه، فما رأيت إلّا براثنه ومنقاره. أمّا اليوم، فأنا معلّق بالجناحين ومن فوق! يعني أنا أتحكّم بمجال الرؤية. فمِمَّ أخاف؟ بعد أن تلاشت رهبة الإقلاع، استعدت نَفَسي. فتحت عينيّ، ورحت أجول بنظري في أرجاء الفضاء من حولي، وأقطار الأرض من تحتي. وأطلقت صوتي للريح:

آاااووووووه! هل هذه صيحة الخوف، أم نشوة اللذّة؟ أم مزيج منهما؟ وصار صاحبي المجنّح يحلّق بي ... ويحلّق!

حلّقنا فوق جنّات عمدّ النظر. رأيت البحار السبعة تعجّ بالأمواج ... وشطآن من لؤلؤ ... وجزر الواق واق ... رأيت الجبال والغابات والأنهار تتدفّق شلّالات ... شفت نهر الأردنّ والنيل ودجلة والفرات ... عاينت العمران القديم والحديث. شفت المدن والبيوت العظيمة في مصر والمغرب والأندلس والهند والصين، والهياكل المعظّمة في بلاد اليونان القديم. طرت فوق بحور بلادي وأرض أجدادي. شفت أهرام مصر والبتراء وهياكل بعلبك وجبل الشيخ وغابة أرز الربّ. طفت على دار السلام والأراضي المقدّسة والقدس الشريف، وتبرّكت بقبّة الصخرة وكنيسة القيامة والمسجد الأقصى والمسجد الحرام ومسجد دمشق الكبير.

صار صاحبي يطير ويعلّي بالجوّ وأنا خلف جناحيه، وجماعة المجنّحين تدور حولنا، لساعات كانت عندي من ألذّ الأوقات! عانقت أقواس قزح. رافقتني رفوف من الأطيار ما رأيت مثلها في حياتي. طرنا فوق الأرض، ودرنا حول جهاتها الأربع فميّزت أقسامها، المسكون منها وغير المسكون. وصلنا إلى قلب السماء واخترقنا الغيوم. من فوقها، تأمّلت الأقاليم السبعة وتعرّفت على بروجها ونجومها (أو هكذا تهيّأ لي!) هذا برج الحمل، وهذا القوس ... والدلو والعقرب ... تمامًا كما قرأت عنها، وكما كنت أتصوّرها وأنا في بلادي. سهرت مع القمر

والمرّيخ. وكدت ألمس الزهرة! أمسكها بيدي ... ألقطها! هذه هي نجمة الصبح؟ الآن فهمت لماذا يسمّونها "سعد الفلك." يا الله ما أجملها!

بقيت جماعة الطيّارين تحلّق في الأجواء، وأنا طائر مع صاحبي، إلى أن وصلنا إلى أعلى قبّة في السماء. سمعت أصوات الملائكة تسبّح الخالق (وفهمت مغزى العبارة "تسبيح الأملاك في قبّة الأفلاك") فتعجّبت! وصحت بأعلى صوتي: "سبحان الله!" وما إن أنهيت التسبيح حتّى خرجت نار من السماء كادت تحرق المجنّحين وتحرقني معهم. فنزلوا كلّهم وحطّوا على قمّة عالية وشَلَحَني صاحبي على الأرض. اغتاظوا منّي (للغاية!) وغضبوا. نفضوا جوانحهم ورحلوا. وخلّوني وحدي على الجبل العالي.

"لا حول ولا قوّة إلّا بالله!" كانت الكلمات الأولى التي نطقت بها بعد دقائق من الذهول. لمّا تركني صاحبي، وجدت نفسي وحدي في مكان مجهول. أهو على الأرض؟ أين؟ على خطّ الاستواء؟ في النصف الشماليّ أو الجنوبيّ؟ في قبّة الأرض؟ في المقلب الآخر؟ أين أنا؟ على الأرض أم على كوكب آخر؟ لا أدري! شعرت بقرب الكارثة وصرت أندب حظّي وألوم نفسي: ما هذا الحظّ التعيس؟ أنا كلّما أخلص من كارثة تصيبني كارثة أقوى منها. عبث! أنا لا أتعلّم ولا أنتصح. لو كان عندي ذرّة واحدة من الذكاء، كنت سمعت من أمّي. لطالما نصحتني: "يكفي سفر يا ابني. صار وقت تستقرّ بأرضك وبيتك ويصير عندك أولاد، صبيّ يملأ عينك وبنت تفرّح قلبك. كفاية غربة يا أمّي. لا تتركني وحدي. أنا ما لي غيرك بهالدنيا ... أنت سَنَدي!"

وحياتك يا أمّي ... التوبة! هذه آخر سفرة. سامحيني! بركتك رافقتني بكلّ سفراتي. ودعواتك يا أمّي تردّني لعندك. الله لا يحرمني من شوفة وجهك المضوّيّ ونور عينيك ... يا حبيبتي يا أمّي!

طيف أمّي أعاد لي الأمل. بعد فعل الندامة، رحت أبحث عن طريق العودة. بأيّ اتّجاه أذهب؟ نوّري لي دربي يا أمّي! ما أنهيت رجائي حتّى طلع عليّ ثلاثة صبيان مثل الأقمار. كانوا ماشيين وفي يد كلّ واحد منهم قضيب من ذهب يتعكّز عليه. تقدّمت إليهم وسلّمت عليهم فردّوا السلام. وقلت: "بالله عليكم من أنتم؟" فقال واحد منهم: "نحن من عباد الله تعالى." ثمّ أعطاني القضيب الذي معه. وانصرفوا. صرت أمشي على الجبل وأنا أتعكّز عالعكّاز وأفكّر في أمر الصبيان الثلاثة. وإذا بثعبان قد خرج من تحت الجبل، وفي فمه رجل بَلَعَه إلى تحت صرّته وهو يصيح: "خلّصوني.. خلّصوني الله يخلّصكم!" عادت إلى مخيّلتي مغامراتي في وادي الحيّات. وتذكّرت ذلك الثعبان الذي بلع رفاقي الواحد بعد الآخر وكسّر عظامهم في جوفه! ماذا أفعل؟ أهرب؟ أخبّيء رأسي وأنتظر ريثما يقضي الثعبان على هذا المسكين، كما سبق وفَعَلتُ مع رفاقي؟ لكنّ اليوم غير الأمس. في ذلك الزمن كنت بدون سلاح. واليوم (بصلوات أمّي)، بعث لي الله القضيب الذهبيّ. قرّبت من الثعبان (بجرأة ما عهدتها فيّ!) رفعت القضيب، وبكلّ قوّتي ضربت الثعبان على رأسه، فرمى الرجل من فمه.

نظرت إلى الرجل المسكين غير مصدّق ما فَعَلَته يدي! هل فعلًا خلّصته؟ هذه أوّل مرّة في سفراتي أنقذ حياة إنسان غيري. وقف

الرجل. نفض ثيابه. تحسّس جسده. تقدّم إليّ وقال: "أنت خلّصتني من هذا الثعبان. لقد أنقذت حياتي! كيف أشكرك؟ لن أفارقك بعد الآن. أنت الآن رفيقي في هذا الجبل."

ماذا يعني هذا القول؟ ومن هو هذا الرجل؟ لا يهمّ. المهمّ أنّي ما عدت وحدي. رحّبت برفيقي الجديد ومشينا بصمت. لا أنا سألته من هو، ولا هو سألني من أنا. بقينا نمشي بدون حكي وبدون هدف، على الأقلّ بالنسبة لي. فأنا ما كنت أعرف أين أنا ولا أين أذهب. وكنت أتطلّع حولي خوفًا من أن يطلع لنا ثعبان آخر أو وحش أو أيّ شرّ جديد. فأنا تأتيني الويلات من حيث لا أدري!

وفيما نحن نصعّد في الجبل، إذا بجماعة من الرجال أقبلوا علينا، وبينهم الرجل المجنّح الذي طار بي في الجوّ. فورًا وبدون تردّد، تقدّمت إليه واعتذرت له (لو أنّي ما عرفت عمّا أعتذر!) وقلت له (بلهجة لطيفة وفيها شيء من العتب): "يا صاحبي ماذا جرى لك؟ أهكذا يفعل الأصحاب بأصحابهم؟" فردّ عليّ: "أنت أهلكتنا بتسبيحك على ظهري!"

أفّ، لهذه الدرجة أزعجه التسبيح! قلت لحالي. وقلت له: "لا تؤاخذني يا صاحبي. فأنا ما كنت أعرف أنّ التسبيح يزعجكم. خلص ما بقى أحكي أبدًا!" فوافق على أخذي معه. واشترط عليّ ألّا أذكر اسم الله طالما أنا على ظهره. ثمّ طلعت جوانحه. تعلّقت بأكتافه. وطار بي مثل أوّل مرّة حتّى أوصلني إلى بيتي.

لا تسألوني كيف كانت رحلة العودة. من أروع الرحلات! الفرق أنّي في هذه الرحلة حبست نَفَسي حتّى لا أنطق بكلمة في غير محلّها! وماذا عن رفيق الجبل؟ كيف تركته؟ لا تسألوني. كان كلّ همّي أن أعود إلى بيتي.

هبط صاحبي المجنّح من الجوّ، ودون أن يحطّ على الأرض، رماني أمام باب بيتي واختفى. تلقّتني زوجتي. تمسّكت بقميصي. نظرت إليّ وفي عينيها ألف عتاب وعتاب. وعانقتني بشوق. ما سألتني عن غيابي ولا عن رحلتي. كانت كلّ ليلة تسألني عن رحلاتي في البحر. عن كلّ سفرة، عن كلّ بحر، عن كلّ زورق، عن كلّ جزيرة! وتسألني عن رفاقي وحبيباتي. تبحث عن أجوبة لأسئلة الـ من؟ ومتى؟ وماذا؟ ولماذا؟ وأين؟ وكيف؟ لماذا ما سألتني عن رحلتي في الجوّ؟ ما عادت تتشوّق لأخباري؟ ما عادت تصدّق حكاياتي؟ ماذا يدور في رأسها؟

ليتها تسمعني. سأخبرها عن رحلة الطيران ... عن الإقلاع والهبوط والتحليق فوق الغيوم. سأحكي لها عن الأطيار والأفلاك والنجوم. سأقول إنّي اشتقت لعينيها ... إنّي الآن أحبّها أكثر ... ليتها تسمعني ... ليتها تفهم غيابي. أردت الاعتذار. بحركة من يدها أوقفتني. ألقت برأسها على صدري وقالت: "أُشكُر الله أنّك عدت بالسلامة. أنا خفت ألّا تعود. خفت أن أفقدك إلى الأبد. عدني أنّك لن تخرج مع هذه الجماعة بعد الآن. ولا تعاشر هالقوم فإنّهم إخوان الشياطين ولا يعرفون ذكر الله." (إذًا هي تدري!)

"ولكن ... كيف كان حال أبيك معهم؟ لماذا ما أخبرني؟" سألتها. فجاوبتني:

"أبي ما كان منهم وما عمل مثلهم! عدني أنّك لن تخرج معهم أبدًا. وإذا أردت رأيي، فأنا أفضّل أن نترك هذه المدينة لأهلها ونرحل."

"مهلًا ... مهلًا ... ولكن هنا مالنا وأرضنا. لمن نتركها ونرحل؟" قاطعتها وكأنّي نسيت أنّي أنا الغريب.

"أنا أرى أنّ طالما أبي مات، أن تبيع جميع ما عندنا وتأخذ بثمنه بضائع ثمّ تسافر إلى بلادك وأهلك." ردّت بصوت مرتجف. ثمّ كمّلت: "وأنا أسافر معك. فلا حاجة لي بالقعود في هذه المدينة بعد موت أمّي وأبي ... وأنت، ألا تريد رؤية أمّك؟"

ماذا أقول؟ امرأتي ترجوني العودة إلى بلادي ... إلى حضن أمّي. وهي تسافر معي! أنا في كلّ سفراتي، ما فكّرت يومًا بالأنثى. واليوم في رحلة العودة، ترافقني الأنثى إلى حضن الأنثى! لم لا؟ أما وعدت أمّي أن أحيا لأرى وجهها ونور عينيها، وأمتّع ما بقي من عمرها برفقة أحفادها؟ وها هي رفيقتي في رحلة عمري ترجوني أن أحقّق حلمها، أن تصير أمّ أولادي.

"ألا تريد أن تصير أبًا يا سندباد؟" سألتني زوجتي. "أنا أريد أن أصير أمًّا ... وأريد أن يتربّى أولادنا بين أهلنا ... ولا أهل لنا في هذه المدينة! عدني يا سندباد أن تحقّق حلمي. عدني أن تعود إلى بلادك، وتصحبني معك في سفينة العودة!"

ما بقي عندي شيء أقوله. أَفحَمَتني هذه المرأة! أين تعلّمت فنّ المجادلة والإقناع؟ أبوها ما كان من أهل السياسة! من أمّها؟ وكأنّها قرأت في كتاب **ألف ليلة وليلة**، ودرست على يد شهرزاد!

ما نمت تلك الليلة وأنا أفكّر في أحلام شهرزادي. وفي الصباح انطلقت للعمل. صرت، شيئًا فشيئًا، أبيع الأرزاق التي تركها لي الشيخ بعد موته، وأترقّب أن يسافر مركب من المدينة فأسافر عليه. وفي يوم، وأنا في متجري، جاءتني مجموعة رجال يبحثون عن سفينة جاهزة للسفر فما وجدوا واحدة. سألتهم من أين هم؟ وإلى أين يريدون السفر؟ قالوا هم بحّارة من عُمان، وينوون العودة إلى بلادهم. لمّا سمعتهم ما صدّقت أذنيّ. وومضت في خاطري بارقة أمل. تذكّرت ما حكاه لي أبي من زمان من أنّنا من أصول عُمانيّة، وأنّني أنا ولدت في مدينة صُحار المطلّة على بحر عُمان. فهل أرسل لي الله أهل بلادي ليعيدوني إلى أهلي؟ وخطرت ببالي فكرة. لماذا لا أبني سفينتي وأستعين بهولاء البحّارة العمانيّين وأعود إلى بلادي؟ طرحت الفكرة عليهم فرحّبوا بها. ورحنا نبني سفينة العودة.

كانت الجماعة العمانيّة تضمّ عددًا وافيًا من الملّاحين وبنّائي المراكب المهرة ممّن عندهم خبرات طويلة في بناء السفن الكبيرة وصيانتها والإبحار فيها حول العالم. انتقينا من الخشب أفضل ما في متجري من خشب الساج (وهو خشب معروف في عُمان)، واخترنا من الحبال أشدّها وأمتنها، وهي الحبال المصنوعة من قشور جوز الهند. اشتغلنا بالليل والنهار من دون توقّف. ما وفّرنا أيّ جهود، لا المال ولا

الزنود، لبناء السفينة-الحلم. بأقلّ من سنة، بنينا سفينة عظيمة ومليحة (روعة! سمّيتها أميرتي). جهّزناها بعدّة ثمينة، من أغلى الصواري والألواح الشراعيّة. وزوّدناها بأفخم الرياش ووسائل الراحة (وما نسيت العلّيّة الخاصّة بامرأتي). فبدت أميرتي السفينة وكأنّها باقة من صدف اللؤلؤ ... أشرعة تنتظر الريح.

لمّا جَهَزَت السفينة، اخترنا الريّس من بين البحّارة (إلى جانب معرفته بالبحار وشجاعته وإقدامه، أكثر ما أعجبني فيه روحه القياديّة واحترامه للآخرين). وصرت أعدّ الساعات بانتظار الوقت المناسب للإبحار. في هذا الوقت، كنت بعت معظم أرزاقي، واحتفظت بخشب الصندل لآخذه معي (خشب الزورق الذي اشتراه الشيخ منّي بمبلغ كبير من الذهب. تذكرون؟) نزلت مع زوجتي وحمّلنا جميع ما كان معنا من مال ومتاع في السفينة. وتركنا الأملاك والعقارات وغادرنا المدينة.

صدرت الأوامر برفع الشراع، وسمعت الملّاحين ينشدون: "شلنا وتوكّلنا علالله ... شلنا وتوكّلنا على الله." وراحت أميرتي تشقّ عباب البحر.

بقينا مُبحرين وسط أناشيد الفرح، وقد طابت لنا الريح والسفر حتّى وصلنا بالسلامة إلى مدينة البصرة. ما أقمت بها كعادتي بعد كلّ سفرة. فأنا غير مصدّق كيف أصل إلى بيتي! تركت أميرتي السفينة في عهدة رفاقي وشركائي العمانيّين. نقلت أغراضنا إلى مركب أصغر وتوجّهت أنا وزوجتي إلى مدينة بغداد.

دخلت حارتي. كدت لا أعرفها! الحارة تغيّرت عليّ وكأنّي في مدينة غير مدينتي. وصلت بيتي. ما تغيّر فيه شيء. المصطبة، الباب الكبير، الشبابيك، الأزهار، العصافير، الفراشات ... كلّ شيء مثلما تركته منذ عشرين سنة (أو أكثر!) قرعت الباب. فتح لي أصغر الخدم (الشيب غطّى رأسه!) تفاجأ لمّا رآني (كانوا قطعوا الأمل من عودتي!) سلّمت عليه وركضت إلى غرفة أمّي. من وراء الباب، سمعت صوتها: "سَنَدي ... آخ يا سَنَدي ... أين أنت يا ولدي؟" هجمت على فراشها أقبّل رأسها وجهها عينيها يديها قدميها. "أنا هنا يا أمّي!" "سَنَدي ... سَنَدي ... سَنَدي باد ... السَنَد ... باد ... السَنَدباد!" صارت تردّد دون توقّف. وأنا أردّد: "أيوه يا أمّي ... أنا معك!" وما تَوَقَّفتُ حتّى فتحت عينيها.

بَقيتُ جنب فراشها، تحت قدميها، مسكت يديها، طول الليل. طَلَبَت ماء سَقَيتُها. وأطعمتها بيدي. صلّينا معًا. وعند طلوع الشمس، شدّت على يدي ونظرت إليّ والدمعة في عينيها. فَهِمتُ! "هذه آخر سفرة! وعد يا أمّي!" قلت لها وقَبَّلتُ جبينها. اِبتَسَمَت ابتسامة خفيفة. أَغمَضَت عينيها وسَكَتَت. (يا حبيبتي يا أمّي!) انتظرتني حتّى رَجِعتُ. وَدَّعَتني ورَحَلَت!

عَزَّتني زوجتي. كيف أكافيها؟ هي التي أعادتني إلى أمّي ... وفي اليوم الحاسم! كيف عَرَفَت؟ أهو حدس الأنثى أم إحساس الأمّ بدأ ينبض في أحشائها؟

بقيت مدّة حتّى ارتحت من عناء السفر وأمواج البحر، وهدأت روحي من موجات الفرح والحزن التي اجتاحتني برؤية أمّي وغيابها عنّي. استعدت فرحي ورجائي. وارتاحت نفسي برفقة شهرزادي. خَزَّنّا البضائع التي جلبناها معنا. رتّبنا أغراضنا. وأجرينا تعديلات على بيتنا. فأنا اليوم بعد غياب أمّي، صرت صاحب الدار. وأنا اليوم غير الأمس، من علية القوم والأغنياء الكبار. جدّدت داري، وَسَّعتُها، وهَيَّأتُها لحياة جديدة. صارت أشرح وأدفأ وأغلى على قلوب الأهل والأصحاب ... والأولاد.

وماذا عن السفر؟

ما زال قلب السماء
يغريني بشهيّات السفر ...

ونكمّل المشوار ...

بقي السفر في بالي. فأنا قطعت البحور السبعة، ودرت في أقاليم الأرض، وطرت إلى الكواكب والنجوم، فكيف أنسى السفر؟ لعلّكم تتعجّبون ممّا جرى لي في سفراتي كلّها، وتقولون إنّي تبت. فمشقّات السفرة السابعة وحدها تكفي لتجعلها الأخيرة وتنسيني ذكر السفر. لكنّ المسألة أعقد من هذا. ربّما اكتفيت من سفر البحر بعد أن زرت أقاصي الأرض، وما بقي شيء في البرّ لأتعرّف عليه. لكن في الجوّ! ما زال قلب السماء يغريني بشهيّات السفر.

وماذا عن إخوان الشياطين؟ تسألون، ألا أخاف منهم؟

فكّرت كثيرًا بجماعة المجنّحين. فعندي من وسائل الإقناع ما يعطيني الثقة للدخول في مغامرات جديدة معهم. ثمّ هم أيضًا أظهروا مرونة فائقة. فهم حملوني معهم رغم علمهم أنّي لست منهم. وقد أثبتت لي هذه السفرة أهمّيّة التساهل وقبول الآخر في حياة البشر. فأنا قبلت صاحبي المجنّح كما هو، وتحمّلت القعود على أكتافه، رغم علمي أنّ التسبيح يزعجه! وهو قَبِلَني كما أنا وحملني على ظهره وأوصلني بالسلامة إلى بيتي وأهلي. فكيف أشكّك بإنسانيّته فقط لأنّه مختلف؟ لا يا أصحابي! ما زالت عندي رغبة قويّة في السفر (وعندي

اليوم سفينتي ورفاقي من الملّاحين والمجنّحين). ولكن كلّ مرّة يخطر ببالي السفر، يمرّ بخاطري وجه أمّي ويذكّرني بوعدي.

عرفتم الآن لماذا ما عدت إلى البحر؟

لأولادي تركت السفر وعشق السفر! ليومها، يكون العلم فَكْفَكَ الألغاز والأسرار، وتكون المراكب شقّت السماوات والبحار. ويفرجها الله علينا وعكلّ البشر!

هذه حكايتي وحكيتها

وبالعبّ خبّيتها!

ولمّا يرجع ابني وبنتي بالأخبار

نكمّل المشوار ...

الدكتورة نجمة حجّار كاتبة عربيّة لبنانيّة-أستراليّة، وأستاذة الدراسات العربيّة والأدب المقارن في معهد الدوحة للدراسات العليا.

عملت كأستاذة محاضرة في الجامعة الوطنيّة الأستراليّة (كانبرا) وفي جامعة سدني (بين السنوات 1986 و2015).

من كتبها المنشورة: مديح النبيّ في الشعر والغناء العربيّ: غاياته وأساليبه - دراسة فنّيّة نقديّة (بيروت 2012)؛ رؤية جماليّة للفكر السياسيّ والاجتماعيّ عند أمين الريحانيّ (بالإنكليزيّة، لندن 2010)؛ العربيّة لغة وحياة (بيروت 2005).

السندباد ابن البلاد أوّل أعمالها الفنّيّة.

السندباد ابن البلاد

في هذا الكتاب، تقدّم البروفسورة نجمة حجّار حكاية السندباد بأسلوب جديد ممتع، فتعيده إلى أصله العربيّ، وتقرّبه من عصرنا بصياغة حيويّة. رحلات السندباد مغامرات دراميّة في سياق التجارة العربيّة في البحار الشرقيّة قديمًا. لكنّ معظم العرب اليوم يعرفونه من "دبلجات" لأفلام كرتونيّة أجنبيّة تشوّه كلّ شيء حتّى اسمه فتجعله "سنباد".

السندباد ابن البلاد شخصيّة عربيّة إنسانيّة تتجاوز الزمان والمكان. يعشق السفر والمغامرة، يحبّ الحياة، ويواجه الأخطار بذكاء وشجاعة. ثقته لا تنفي شكّه وخوفه ومحاسبته لنفسه. يتوب عن السفر ويعود إليه. يحنّ إلى وطنه الأمّ وإلى وجه أمّه، ويحبّ الناس، بصرف النظر عن الأصل واللون واللسان والمعتقد.

للمرأة حضور هامّ وطبيعيّ في هذا النصّ الجميل الذي جدّدت روايته لنا أديبة باحثة عربيّة عايشت "السندباد" العربيّ في عملها الأكاديميّ، وصاغت مغامراته بعربيّتها العصريّة، وذوقها الجماليّ، وخيالها، وتساؤلاتها التي تحفّزنا على التفكير في "الحالة الإنسانيّة" في زمان السندباد وفي زماننا.

أحمد هادي الشبول